المُحتلة

محمود عاطف

المُحتَلة

محمود عاطف

”أسوأ شيء هو أن يشعر المرء بأنه غريب على أرضه، وبأنه لا يملك أي شبر فيها.“

رجا شحادة

محام وكاتب فلسطيني

مقدمة

كنت أستشعر ذاك الهواء البارد الذي يُداعب قدمي، فَسَرت قشعريرة في جسدي، لكنها ليست مؤلمة، فالمكان حولي يجعل الرعب يتراقص طربًا في قلبي، هناك ضباب كثيف لا أري أي شيء خلفه، كأنني استيقظت في عالم اللاشيء تمايلتُ قليلًا وأنا أمُد يدي أمامي حتى لا أصطدم بأي أحد، وفجأة ظهر أمامي شبح لم أتبين كنهه من بعيد.

اقتربت منه أكثر حتى أصبحت خلفه تمامًا، وإذ به يلتفت تجاهي بتروٍ، شعرت بأن قلبي قد توقف عن النبض ولساني تيبس لم أستطع النطق، تجسد هذا الهيام أمامي بشريًا، عندما نظر بعينيه التي كانت تطوف في الفراغ، أصبح يقف أمامي وجهًا لوجه كهل طاعن في السن، يرتدي حُلة بيضاء تَقيه برودة الجو، وخُفان كبيران يحمونه من برودة تلك الأرض الملساء، لدية لحية كثيفة بيضاء، يمتلك عينان كبيران بعض الشيء.

كل هذا استطعت تحديده من خلف ذاك الضباب اللعين، بدأ بالطواف حولي فشعرت برجفة تسكن أوصالي، وعندما بدأ بتحريك شفتيه لم أفهم ما يرنو إليه بادئ ذي بدء، لكن بطبيعتي تلجلجت في الحديث، خرجت مني تنهيدة غريزيًا بغير قصد مني، اقترب مني أكثر حتى أصبحت بيننا مسافة خطوة واحدة وبدأ بالحديث:

- أظنك لا تعرفني؟!

سمعتُ الصوت كأنه داخل عقلي، تلعثمت ولم أنطق ببنت شفه، حركت رأسي نفيًا، فقال متفهمًا:

- لا عليك، لكن لا يهم من أنا، المهم أن تعلم ما يجب عليك فعله!

ابتلعت غصة في حلقي وتشجعت بالحديث مع هذا الهيام البشري:

- وما الذي يجب عليّ فعله؟

- أنت في عالم الأحلام، لا تعلم كيف تسير، فقناعتك بأنك تعلم يهدئ من روعك قليلًا، لكن هذا ما تُخادِعك به نفسك، حتى لا تشك بأمر ما يحدث وتعتبرها مصادفة لا مجال للشك فيها.

ثم شعرت بأنه توقف فجأة عن الطواف، وشعرت بأنفاسه الحارقة خلف أذني:

- أنت تسير في مسارات ملتوية، ومتفرقة، ومشتتة لعقلك؛ فكن على سجيتك واتبَع قلبك فهو دليلك لسلوك الطريق المستقيم، فهو يعلم ما لا تشعر به.

ثم انبثق إعصار شديد دوى في المكان، وأخذ يختفي تدريجيًا ذاك الهيام، وأصبح الضباب يتراقص بجواري؛ كأنه ظهر ثقب أسود وبدأ بابتلاع كل ما يقابله، ثم انقشع هذا الضباب، ومن ثَم رأيت نورًا قد اقترب فجأة لم أعلم من أين ظهر وشعرت بأنه يأخذني لمكان آخر.

(1)
مرارة الحياة

استيقظت إثر هذا وأنا أتصبب عرقًا، جسدي يرتجف بشدة، وعقلي أصبح خائرًا لا يعلم هل ما حدث حُلمًا أم حقيقة؟! فقد شعرتُ بكل شيء، فمن هذا الهيام؟! إنه يعلم ما يُخفيه قلبي، أعتقد أنني بدأت بالهذيان، مسحتُ وجهي بيدي علَ ما حدث ينقشع من عقلي ويصبح سرابًا، نظرت إلى ساعة الحائط أمامي فوجدتها قد اقتربت من الثالثة صباحًا فقمتُ أهيئ نفسي لصلاة الفجر.

وبعد أن انتهيت منها عُدت أدراجي فلم أستطع النوم من جديد، جلست أتلو بعض آيات الله؛ علها تذهب عني ما رأيته، وإذ بي أُصعق من صوت الهاتف فألقيت نظرة عابرة عليه، وإذ بي أجد المتصل صديقي "مُنقذ" أجبتُ مُسرعًا، وجدته مازال في سكرات النوم، يتثاءب قليلًا، وأخبرني بأنه سَيذهب إلى المؤتمر اليوم، فكنت قد أخبرته بأن يُعلمني بِنزوله حتى أستطيع النزول أيضًا، فهو الوحيد الذي صادقته في حياتي الجامعية كلها، قمت أهيئ نفسي للخروج، وبعد أن تجهزت بكامل أناقتي بزيي المعتاد سروالًا رصاصي اللون، عليه قميصًا شديد البياض، عليه سُترة بلا أكمام رمادية اللون، ربطة العنق بلونها الأسود القاني، والحقيبة البُنية المزخرفة بعلم وطني "فلسطين" التي أحملها في أي مكان أذهب إليه.

فعندما كنت في سن الخامسة والعشرون كنت أتجهز بهذا الشكل وأذهب إلى جريدة الأخبار التي كنت أعمل بها في "جمهورية مصر العربية" وبعد أن ملأت التجاعيد تقاسيم وجهي بدأت بالاسترسال في الترحال من بلدٍ إلى أخرى، فأنا فلسطيني المنشأ جئت من أم فلسطينية وأب مصري، لكن تلك المشاكل التي حدثت بين أعمامي وأبي هي ما جعلتنا نُنقل

معيشتنا بأكملها في "فلسطين"، وكما هو الحال لم أستطع التأقلم مع عائلة أمي التي لا نراها إلا في المناسبات فقط، واستأجرت شقة تطل نافذتها مباشرة على "القدس الشريف" وبحثت مضنيًا على جريدة لاستكمال عملي، وبعد أن كادت كل الأبواب تنغلق بوجهي جاءني "مُنقذ" ليُنقذني من هذا الهلاك، كان يعمل نائب رئيس التحرير في جريدة تُسمى "الخبر"، وتحدثَ مع رئيس الجريدة، والآن أصبحتُ أعمل كمحرر صحفي بها، وبدأت المفاجآت تأتي تِباعًا، والرحلات الشيقة التي يعطيها رئيس الجريدة لنا أنا و "مُنقذ" من أجل عملنا الدؤوب، كنا نكتب الأخبار من هنا وتتصدر أسماؤنا جميع الصحف والمجلات وعبر شبكات التواصل الاجتماعي.

ولجتُ من باب المنزل واستقلت سيارة أجرة؛ لكي توصلني إلى محطة القطار، وبينما أنا في طريقي تذكرت شيئًا فقمت بفتح هاتفي ونظرتُ صَوب خريطتي اليومية، فسنذهب أولًا إلى المؤتمر الذي يقع في (قصر المؤتمرات ببيت لحم) وبعد الظهيرة سنذهب لاجتماع طارئ في مدينة (أريحا) وسنبدأ بعدها بأخذ جولتنا في حنايا "فلسطين" بأكملها لنرى معالمها الثمينة.

هبطتُ من السيارة لأجد في استقبالي عدادًا هائلًا من البشر، كأن العالم بأكمله قد أجمع على إعاقة رحلتي تلك، كانوا ذاهبون جميعًا إلى مكان ما فانتظرت عبورهم، لكن بعدها وجدت وفدًا أكبر بكثير جاء من كل صوب فقررت العبور حتى أستطيع اللحاق بالقطار في موعده، تعثرت كثيرًا وكدت أرتطم بهم لولا تلك اليد الحانية التي جذبتني لجانب

الطريق، كان شخص أشقر الوجه والشعر، لديه لحية كثة، يرتدي سروالًا شديد البياض وبداخله قميصًا زاهي الزُرقة، ويضع عليه وشاحًا يلتف حول عُنقهِ يبرز منه المسجد الأقصى، ومُشبع بألوان علم "فلسطين".

فهذا "مُنقذ" صديقي، صافحته بحرارة وعاجلته بسؤالي:

- أين يذهب كل هؤلاء الحُشود؟

قال بلغة فلسطينية بحتة وهو يرفع رأسه لأعلى كأنه ينادي للجهاد:

- ذاهبون للمدافعة عن أرضهم، ستقوم حرب قريبًا.

قلت مدهوشًا:

- لكن سينهزموا بهذا الشكل، دون مدافعهم وخناجرهم!!

نظر "مُنقذ" لي نظرة غضب بعدما احمرت وجنتاه قليلًا:

- صديقي "عامر" نحن نحمي أرضنا ووطننا بأجسادنا، لا نهاب شيئًا.

أمَأتُ له بالموافقة ولم أنبس ببنت شَفة، فهو إيطالي الجنسيّة جاء إلى "غزّة" على أوّل مركب لحركة التّضامن الدولية يهدف إلى كسر الحصار عن شعب "غزّة" وإلى إعادة تفعيل دور الحركة في الدّفاع عن حقوق الإنسان، عرفه أهل "غزّة" هو وزملاؤه حين كانوا يخرجون مع الصيّادين الفقراء ليشكّلوا دروعًا بشريّة تمنع "إسرائيل" من قصف القوارب في عرض البحر، وقد أصيب مرّةً في قصف

البحرية الإسرائيلية لتلك القوارب، واعتُقل وأودع سجن "الرملة" مع زميلين له وفتاة، لفترة أضربوا فيها عن الطعام؛ لإجبار "إسرائيل" على إعادة قوارب الصيد الفلسطينية إلى أصحابها.

وكشرطٍ لإعادتها وافق على ترحيله إلى إيطاليا، لكنه عاد سريعًا قبل عملية الرصاص المصبوب بأيام.

رَكِبنا القطار بعدما قطعنا تذاكره، وفي الطريق بحثتُ على الشبكة العنكبوتية عن معلومات عن مدينة "بيت لحم"، جآني سيلًا من المعلومات، انتقيت منها أفضلها، وبدأت بالقراءة بصوتٍ هامس: «هي من أعرق المدن الفلسطينية التي يرتبط تاريخها بتاريخ الشعب الفلسطيني وأصالته.

فهي مدينة قديمة في التاريخ سكنت حوالي سنة 2000 ق.م. وتذكر ألواح "تل العمارنة" التي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد مدينة جنوبي القدس تسمى "بيت ايلو لا هاما" (Bit Ilu Lahama) أي بيت الإله "لا حاما" أو "لا خاما". وهذا الإله هو إله القوت والطعام عند الكنعانيين، والأرجح أن اسم المدينة الحالي مشتق من اسم هذا الإله، وربما كان سبب جعل المدينة بيتاً للإله "لا حاما" أنها كانت تقع في منطقة خصبة ترعى فيها الأغنام والمواشي وتنتشر فيها حقول القمح والشعير والكروم والزيتون، ومن المعروف أيضًا أن كلمة "بيت لحم" تعني بالآرامية "بيت الخبز". وفي هذا أيضًا إشارة إلى خصب الأرض المحيطة بالمدينة، ولبيت لحم اسم قديم آخر هو "افراته" أو "افرات"، وهي كلمة

آرامية كذلك معناها "الخصب والإثمار"، وبذلك يلتقي اسما المدينة عند معنى الخصب.

غزت القبائل اليهودية هذه المدينة الكنعانية واستقرت فيها بعد الكنعانيين. ويروى أن (يعقوب عليه السلام) جاء إلى المدينة من بيت ايل وهو في طريقه إلى الخليل، وقد اضطر للتوقف فيها؛ لأن زوجته (راحيل) جاءها المخاض عندها فماتت ودفنها في مكان قريب من "بيت لحم" يعرف اليوم "بقية راحيل".

وفي أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد تعذب الفلسطينيون على الملك اليهودي (شاؤول) وقتلوه وأقاموا في "بيت لحم" فترة من الزمن إلى أن تغلب عليهم الملك (داود).

وفي "بيت لحم" ولد الملك (داود)، ويروي "سغر راعوث" أحد أسفار العهد القديم قصة "راعوث المآبية" التي انتقلت بعد وفاة زوجها مع حماتها (ناعومي) إلى "بيت لحم" حيث تزوجت الثري اليهودي (محلون) وولدت له (عبيد Obed)، وهو كما قيل جد (داود)، والواقع أن هذه القصة هي إضافة متأخرة إلى أسفار العهد القديم ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد، وكان القصد منها تصحيح الصورة الانعزالية لليهود خاصة بعد عودتهم من السبي البابلي في القرن السادس، وهي من الأساطير.

استمدت "بيت لحم" أهميتها الكبرى وشهرتها في العالم من مولد السيد المسيح فيها، ويروي انجيل لوقا (2: 1-20) أن (مريم) و (يوسف النجار) ذهبا إلى "بيت لحم" ليسجلا اسميهما في الاكتتاب (الإحصاء) العام، بناء على أمر

(أغسطس قيصر)، وقد ولدت (مريم) السيد المسيح وهي هناك، وذكر الداعية المسيحي (يوستين مارتير Justin Martyre) الذي كتب بعد سنة 155هـ أن (مريم) ولدت السيد المسيح ووضعته في مذود في مغارة قريبة جدًا من القرية.

وأخمد جيش الإمبراطور الروماني (هادريان) ثورة اليهود بقيادة (باركوخيا Bar Kokhba"، وهدم المدينة وأقام فيها حامية رومانية. ثم أمر الامبراطور ببناء معبد للإله "أدونيس" فوق المغارة التي ذكر أن السيد المسيح ولد فيها.

وفي حوالي سنة 330هـ بنى الإمبراطور (قسطنطين الأول) الروماني كنيسة فوق المغارة دعيت بكنيسة "القديسة مريم"، والمشهور أن الذي بنى هذه الكنيسة هو القديسة (هيلانة) أم (قسطنطين الأول)، وفي سنة 386م حلّ في "بيت لحم" القديس (جيروم) وترجم فيها العهد القديم إلى اللغة اللاتينية، وبقيت الكنيسة حتى عام 529هـ حين هدمها السامريون عندما ثاروا على الدولة الرومانية، فأعاد بناءها الإمبراطور (جوستنيان) بشكلها الحالي تقريبًا وأصبحت تدعى "كنيسة المهد".

ويروى أن الفرس عندما احتلوا "فلسطين" سنة 614م لم يمسوا الكنيسة بأذى؛ لأنهم رأوا على واجهتها الصورة المصنوعة من الفسيفساء التي تمثل سجود المجوس بملابسهم الفارسية أمام السيد المسيح، وعندما فتح المسلمون القدس سنة 15هـ أظهروا الاحترام لمهد (عيسى عليه السلام)، وقد

وصف القس (أركولفوس Arculfus) بيت لحم في القرن السابع الميلادي فقال: "إنه كان للمدينة آنذاك سور منخفض لا أبراج فيه".

وفي سنة 492هـ دخل الصليبيون مدينة "بيت لحم" بقيادة (تنكريد Tancred) وفي السنة التالية توج (بلدوين الأول Baldwin) فيها ملكًا على القدس، وأصبحت "بيت لحم" أبرشية حينها، وأعاد الصليبيون تعمير المدينة، وأضافوا إلى "كنيسة المهد" ديراً على النمط القوطي، وبنوا حصنًا فيها، وأقاموا عمائر مختلفة حول الكنيسة، وفي أثناء حكم الصليبيين لم يكن اليهود يجرؤون على العيش في "بيت لحم».

توقفتُ قليلًا عن القراءة عندما جاء جامع التذاكر ليرى تذاكر سفرنا، ولما انتهى أكملت:

«ولما انتصر (صلاح الدين) على الصليبيين سنة 583 هـعادت "بيت لحم" إلى حكم أهل البلاد، لكنها ما لبثت أن سلمت إلى الصليبيين ثانية سنة 627هـ بموجب اتفاقية عقدت بين الملك (الكامل) الأيوبي والإمبراطور (فريدريك)، وفي سنة 642هـ تمكن الملك الصالح (نجم الدين أيوب) ابن (الكامل) من استعادة "بيت لحم" بمساعدة الخوارزميين.

وفي عصر المماليك زار "بيت لحم" أو وصفها عدد من الكُتاب والرحالة المسلمين منهم (الهروي) و (ياقوت) الذي ذكر أنها كانت عامرة حافلة فيها سوق ومزارات، و(القزويني)، (ابن بطوطة)، (الظاهري). ومعظم هؤلاء

ذكروا أن بها جذع النخلة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم (سورة مريم آية 25).

وحدثت في آخر العهد المملوكي فتنة في البلاد أسفرت عن هدم حصن المدينة المنيع وتخريب أسوارها، وفي سنة 923هـ استولى العثمانيون على "بيت لحم"، وبقى المسيحيون فيها يتمتعون بحريتهم الدينية، وقدر الرحالة الفرنسي (فولني volney) عدد سكانها في القرن الثامن عشر (الثاني عشر الهجري) بستمائة شخص، وقال: "إن المسيحيين في بيت لحم يعيشون في سلام ووئام مع مواطنيهم المسلمين، وجميعهم من اليمانية، والفلسطينيون حزبان يمانيون وقيسيون".

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر (الحادي عشر والثاني عشر للهجرة) حدثت نزاعات بين طائفتي الروم الأرثوذكس واللاتين حول ملكية الأماكن المقدسة في "بيت لحم" ومنها ما حدث سنة 1170هـ، وعنده أصدرت الحكومة العثمانية أمرًا حددت فيه ما خص كلًا من الطائفتين، وفاز الأرثوذكس بمعظم الأماكن.

استمرت الخصومات في القرن التاسع عشر (الثالث عشر للهجرة)، وفي عام 1264هـ اختفت النجمة الفضية المثبتة في مغارة المهد وقد كتب عليها باللاتينية "هنا ولد المسيح من العذراء مريم"، وكانت سرقة النجمة عاملًا هامًا في الأزمة الدولية التي أدت إلى حرب القرم (1854م – 1856) بين روسيا من جهة والدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى، وانتهت الحرب بانتصار العثمانيين

وحلفائهم، وسمح للاتين بعد ذلك بأن يضعوا يدهم على قسم من "كنيسة المهد"، وقسمت الكنيسة بين الروم الأرثوذكس واللاتين والأرمن، وما زال هذا الوضع قائمًا حتى الآن.

وفي عام 1250هـ أثناء حكم مصر القصير لفلسطين دمر (إبراهيم باشا) الحي الإسلامي في "بيت لحم" إثر الثورة التي اشتعلت ضد المصريين في المدينة، وفي عام 1336هـ دخلت "بيت لحم" وفلسطين كلها تحت الحكم البريطاني الذي استمر حتى سنة 1368هـ، وفي هذه الفترة كانت "بيت لحم" من مراكز الثورة الفلسطينية ضد الانتداب البريطاني، وكان مركز الشرطة الإنكليزي فيما هدفًا لهجمات الثوار الفلسطينيين في أعوام الثورات المتكررة ضد الاستعمار البريطاني وحليفته الصهيونية.

وبعد نكبة عام 1948م دخل المصريون "قطاع الخليل" و "بيت لحم"، ثم انسحبوا منه في أيار عام 1949م، واستقر الحكم بعد ذلك في "بيت لحم" وفي الضفة الغربية كلها للأردن حتى حرب 1967م عندما وقعت "بيت لحم" والضفة الغربية تحت الاحتلال الإسرائيلي.

كانت "بيت لحم" في العصور القديمة قرية متواضعة تكتفها الأودية العميقة من جهاتها الثلاث، وقد اشتهرت كمركز تجاري في العهد الروماني لقيامها على الطريق التجارية التي تربط بين البحر الأحمر وبلاد الشام، ووصلت شهرتها إلى الذروة نتيجة لميلاد المسيح فيها، وفي القرن الخامس عشر الميلادي كانت "بيت لحم" محاطة بالأسوار،

واشتملت في القرن التاسع عشر على المدارس والكنائس والأديرة والمساجد والمشاغل الصناعية.

أخذ عدد سكان "بيت لحم" يتناقص خلال الحرب العالمية الأولى بسبب الحرب والأمراض والمجاعات والهجرة، ولكنه أخذ يتزايد ببطء شديد فيما بعد، وبالرغم من بطء النمو السكاني أثناء فترة الانتداب البريطاني شهدت المدينة نموًا عمرانيًا آنئِذ؛ بسبب تدفق رؤوس الأموال من المغتربين من أبناء "بيت لحم". وقد استثمر معظمها في إنشاء المباني السكنية العصرية، والمصانع المختلفة، والمحلات التجارية.

وفي الفترة التالية تطورت أحوال "بيت لحم"، وزاد عدد سكانها نتيجة تدفق اللاجئين الفلسطينيين إليها، وقد أدى الاحتلال (الإسرائيلي) للمدينة عام 1967م إلى انكماش عدد سكانها في نهاية العام، وبعد أن استقرت الأوضاع نسبيًا في المدينة أخذ عدد السكان يرتفع تدريجيًا حتى عاد إلى ما كان عليه قبل الاحتلال، وأخذت المدينة تتوسع عمرانيًا، لا سيما بمحاذاة طريق "القدس الخليل".

ساهم كون "بيت لحم" مسقطًا لرأس "السيد المسيح" في أن يكون لعامل السياحة وما يرتبط بها الدور الأساسي في اقتصاد المدينة التي تحولت إلى محج للسياح على مدار السنة، وعلى الرغم من أن المدينة تفتقر إلى الفنادق السياحية الكبرى فإن الجوانب الأخرى السياحية فيها متطورة، وأهمها تطور صناعة الأراضي المقدسة من خشب الزيتون والصدف والنحاس والتطريز، وقد دخلت هذه الصناعة في

القرن الثاني الميلادي فأتقنها أهل المدينة وأصبحت مصدر الرزق الرئيس لمعظم بيوتها، ثم أخذت تتطور بدخول الآلة إليها.

وتعتبر مدينة "بيت لحم" من أفضل وأهم المدن الفلسطينية؛ بسبب إقامة عدد كبير من المؤتمرات والمحافل الدولية على أراضيها، حيث شهدت العديد من الاحتفالات والمناسبات مثل: استقبالها للرئيس الأمريكي السابق (جورج بوش) خلال زيارته لكنسية المهد بهدف الحج، بالإضافة إلى استضافتها للمؤتمر الاقتصادي العربي في قصر المؤتمرات.

وتقع المدينة على جبل يرتفع قرابة 780م عن سطح البحر في الجزء الجنوبي من سلسلة جبال القدس، وعلى مسافة تزيد قليلًا على 10 كم جنوبي مدينة القدس، تشكل مدينة "بيت لحم" مع مدينتي بيت "جالا" وبيت "ساحور" تجمعًا عمرانيًا ثلاثيًا، فالواحدة لا تبعد عن الأخرى سوى اثنان أو ثلاثة كم، فبيت "جالا" تقع شمالي غرب "بيت لحم"، وبيت "ساحور" شرقيها.

وكان للأحداث السياسية والآلام التي تعرض لها الشعب الفلسطيني دور كبير في تطور عدد سكان المدينة، إذ لجأ الآلاف من أبناء فلسطين وسكنوا مخيمات ثلاثة بالقرب من المدينة، أكبرها مخيم "الدهيشة" ولا يزال هؤلاء اللاجئون يعيشون في هذه المخيمات في ظروف سكنية قاسية، إذ أن التمركز السكاني الشديد على مساحات ضيقة من الأرض، والخدمات الضرورية متواضعة جدًا.

أما بالنسبة للصناعات فكانت صناعة التحف الخشبية من أقدم الصناعات في المدينة، لكن هذه الصناعة واجهت بعد الاحتلال الصهيوني الكثير من الصعوبات، ولا سيما صعوبة تأمين خشب الزيتون الذي كان يستورد قبل الاحتلال من "سورية"؛ لأن الخشب المحلي لا يكفي، وقد أدى ذلك إلى التوجه إلى صناعة الصدف الذي يستخدمون فيه الخام المستورد من الخارج، وفي "بيت لحم" أكثر من 45 محلًا تجاريًا لبيع تحف الأراضي المقدسة.

والتطريز يدوي تقوم به نساء المنطقة على قطع صغيرة، أو على الثياب النسائية، وتشتهر منطقة "بيت لحم" بجمال أشكال التطريز، وقد تطورت في المدة الأخيرة في مدينة بيت لحم صناعة التحف المعدنية النحاسية، وأقيم فيها معملان آليان لإنتاج هذه التحف.

وهي ثاني مدينة في الضفة الغربية بحجم إنتاجها الصناعي بعد "نابلس"، وقد تطورت فيها صناعة النسيج، وهي تقوم بإنتاج أنواع كثيرة من الأقمشة، خصوصًا أقمشة الفرش والأقمشة الخشنة والمناشف، يضاف إلى ذلك عشرة معامل "للتريكو" تنتج مختلف الألبسة الصوفية، وتتطور في المدينة صناعة "المعكرونة".

ليس للزراعة في حياة "بيت لحم" ما للصناعة من أثر، وذلك لأسباب كثيرة أهمها طبيعة الأراضي الجبلية للمدينة التي تحد من تنوع الإنتاج الزراعي، وشيوع الملكية الزراعية الصغيرة التي تحد من الاستثمار الشامل والآلي للزراعة، يضاف إلى ذلك العراقيل التي وضعها الاحتلال

الصهيوني في وجه الزراعة والتي أدت إلى تحول الأيدي العاملة إلى العمل الصناعي، والزراعة في أراضي المدينة بعلية، وأهم المنتجات الزراعية هي الشجرية من زيتون وعنب ولوزيات، يضاف إلى ذلك بعض الخضر الصيفية، ويزرع في المنطقة من الحبوب القمح والشعير وبعض البقول.

نالت "بيت لحم" قسطًا وافرًا من التعليم منذ زمن بعيد، إذ أقيمت أولى المدارس فيها منذ أكثر من 100 عام. ويعود ذلك إلى الطابع الديني الغالب على المدينة الذي أدى إلى وجود الإرساليات والأديرة التي أقامت المدارس الخاصة من زمن بعيد، وفي عام 1973م تم افتتاح جامعة "بيت لحم"، وقد كان طلابها يدرسون في كلية الآداب، وكلية التمريض، وكلية المعلمين، ومعهد الفنادق، وهي من أقدم المدن الفلسطينية التي وجدت فيها المشافي."

اكتفيتُ من القراءة وبدأت أُتابع الطبيعة الخلابة التي تبرز على مشارف المدينة، تمعنت بالنظر في تلك الوديان المليئة بالخُضرة، وفجأة كاد قلبي ينخلع من صدري بسبب ذاك القطار الذي عبر فجأة بجانبنا، فأنا لم أتعود بعد على تلك القطارات، وبدأت المساكن تظهر رويدًا رويدا، وجدت بالمدينة طرازان معماريان مختلفان، الأول قديم نوعًا ما فتلتصق هذه البنايات بعضها ببعض مقسمة البلدة إلى حارات متراصة ذات شوارع ضيقة.

وكان هذا هو الشكل الأمثل لتأمين الدفاع عن المدينة والأحياء قديمًا ومازال بعض السُكان يُحافظون على هذا

الشكل؛ أما الطراز الثاني فهو الطراز الحديث في مناطق السكن الجديدة، ويتكون البناء فيه من الحجر المنحوت من الخارج والاسمنت من الداخل، والشبابيك والأبواب مستطيلة الشكل، والسقف مسطح، وشكل البناء السائد هو البيوت المستقلة ذات الطبقة الواحدة، وهناك أيضًا عمارات حديثة المنشأ من طبقات متعددة، ومررنا على "كنيسة المهد" أقدم كنيسة في العالم.

*****

هبطنا واستقلنا بعدها مباشرةً باص المدينة فالحارات ضيقة بعض الشيء غير أن بين كل قرى المدينة كمائن إسرائيلية وحواجز عسكرية تُفتش كل كائن حي يدخل ويخرج، يستخدم جنود الاحتلال الإسرائيلي الحواجز الإسرائيلية كمصيدة لاعتقال رجال المقاومة ومن تسميهم بالمطلوبين في أثناء مرورهم عبرها، وفي طريقنا توقفنا فجأة، وصعد جندي إسرائيلي مُلثم الوجه إلى الباص وجمع بطاقتنا جميعًا، ثم طلب منا النزول، وقفنا صفًا واحدًا قُرب جدار مُتهدم، كنا نحو عشر رجال وامرأتان وأربع أطفال من بينهم طفل رضيع، قرروا اقتيادنا إلى مبنى احتلوه من قبل وأطلقوا عليه تهكمًا اسم الفندق، لأنهم كانوا يحتجزون الشباب فيه بانتظار ترحيلهم إلى معسكرات اعتقال دائمة، ثم بدأوا بنداء أسمائنا وشتمنا حتى وصل جندي إسرائيلي من أصول إفريقية وكان يحمل بيديه أربع علب، لم أدر ما فيها، حين جاء دوري بدأوا بضربي أعلى معدتي ووجهي وعلى

رأسي وفي مناطق حساسة بجسمي، كان بعضهم يقيد حركتي وآخرون يواصلون ضربي ثم ألقوني أرضًا، طلب أحدهم مني أن أغمض عيني فرفضت حينها ضربني بعقب البندقية على وجهي، فاضطررت لإغماض عيني، قال لي افتح فمك فرفضت، دسّ أحدهم ماسورة البندقية في فمي ليرغمني على فتح فمي، فيما قام أخرون بسكب محتويات العلب في فمي وضربني على معدتي، تبينت حينها أنهم يرغموني علي شرب بَولِهم.

لقد تعرضت للإهانة والاعتقال من قبل جنود الاحتلال المرابطين على حاجز عسكري بين قريتي وادي "رحال" و "الخضر" القريبتين من مدينة "بيت لحم" جنوب الضفة الغربية، كنت أشعر أني أختنق، فلم تكن هذه الحادثة منعزلة بالنسبة لي، ولا يمكن القول أنها كانت تقليدية كذلك.

سمعتُ شهقات العجزة والأطفال يستغيثون بالبكاء المرير من آلام متفرقة بأجسادهم وبطونهم التي تتألم لشربهم ذاك الشراب، وجدتهم منثورين على الأرض كالحجارة التي نجدها في الطريق، التي نركلها بأقدامنا لجانب الطريق.

استندت على نفسي وقمت أُلَمم دمائي المتساقطة من وجهي، وبدأت بِحملِ العجزة والمرأتان والأطفال لجانب حائط واحد، وأصبحنا نجلس في حلقة نصف دائرية، وشكروني جميعًا وبدأ كل شخص يحكي ما حدث له قبل ذلك في مثل هذا الوضع فيقول شاب فلسطيني يحمل بحوزته صندوقًا خشبيًا والدماء تتساقط من عينيه:

- أُدعى (وسام) طالب جامعي، حدثت معي حادثة علي حاجز "بيت ابيا" القريب من "نابلس"، حين جاء دوري ووصلت على الشباك طلب مني الجندي الإسرائيلي أوراقي الثبوتية فأعطيته بطاقة الجامعة وهويتي، قال لي: "كم عُمرك؟" قلت له: "ثلاثين سنة."، فأخرج جسده من الشباك ولطمني على وجهي وقال "كذاب عُمرك ليس ثلاثين اذهب من هنا حالًا." وبعد قليل وصل الضابط المسؤول وسأل عما جرى وفجأة تنبه لما أحمل، سألني: "ما الذي معك بالصندوق؟." قلت له: "كَمَان" قال لي: "افتحه"، ففتحت صندوق الكَمَان فقال لي: "اعزف لنا موسيقى حزينة."

ويُكمل وهو يمسح دموعه بأكمام قميصه:

- إذا لم أُجب عليه تَحل عليّ كارثة، وأصبحت أعزف لجنود حاجز بيت "ابيا" الإسرائيلي كلما أردت الخروج من "نابلس"؛ لزيارة ذوييّ في قريتي أو الوصول إلى "نابلس"؛ لإكمال دراستي الجامعية.

بَغاته عجوز أشيب الشعر والذقن بسؤال:

- حادثة الضرب والشتم تبدو عادية علي الحواجز، أما لما ضربك الجندي عندما أخبرته بِعمرك؟

أجاب الشاب بأسى مُرتسمًا على ملامحه:

- الثلاثين نقطة مثيرة؛ لأن الإسرائليين يحددون سنوات العمر لمن يُسمح لهم ولمن لا يُسمح لهم بالعبور، وعبور بعض الحواجز حكر على من تجاوز الثلاثين، وفي حالات أخرى تحتاج أن تكون هرمًا ليسمح لك بالعبور.

فقال العجوز والدموع تملا مُقلتيه:

- هم لا يهتمون بإذا كنت هِرمًا أم رضيعًا، لقد وضعت زوجتي مولودها على حاجز عسكري لقوات الاحتلال الإسرائيلي في "الخليل" بالضفة الغربية على المدخل المؤدي إلي حي "تل الرميدة" وسط المدينة حيث نُقيم هناك، وذلك بعد منعنا من الوصول إلى المستشفى.

وأضاف وقد طفى شبح ابتسامة على ثغرة:

- فالإرادة الإلهية وحدها هي من أنقذت مولودي الجديد "أحمد" من موت محقق، لشدة البرد الذي كاد أن يؤدي لاختناقه في أثناء عملية الوضع، وجنود الاحتلال المُتمركزين علي الحاجز اعترضونا ورفضوا فتح البوابة الحديدية التي تغلق الشارع بينما كُنا متجهين إلى المستشفى الحكومي في "الخليل"، واحتجزونا لنحو نصف ساعة بدعوى إجراء اتصالات أمنية تسمح لنا بالمرور، وكل هذا حدث قبل وصول إسعاف الهلال الأحمر الفلسطيني الذي استدعيناه لهذا الغرض، والذي قام بِدوره بنقل زوجتي والمولود إلى المُستشفى.

ربتُ على كتفه فحتمًا استطعت حبس دموعي قبل الاسترسال في الجريان، فقالت امرأة في منتصف العشرينات من عمرها بحشرجة بصوتها وهي تبكي وتنظر لهذا الرجل العجوز:

- حدثت لي مثل ما حدث لزوجتك، فلقد انطلقتُ قبل منتصف الليل إلى مستشفى الأمل بمدينة 'جنين" لإنجاب مولودي الأول، ولكن حواجز الاحتلال كانت لي بالمرصاد،

فلم اكد أجتاز ما يُعرف بِحاجز "برطعة" غرب مدينة "جنين" شمال الضفة الغربية حتى اصطدمتُ بِحاجز "دوتان" القريب منه، والذي أعاق وصولي لعدة ساعات.

أكملت وهي تحاول السيطرة على أنفاسها المهدرة:

- رفض الجندي الإسرائيلي فتح بوابة الحاجز، وطلب مني ومن معي الانتظار حتى يُفتح الحاجز في الصباح، الأمر الذي زاد حالتي سوءًا وشعرت بألم كبير وبدأت علامات الولادة الأولى تظهر عليّ، وبعد مماطلات جاءت إحدى دوريات الاحتلال وفتحت الحاجز، ومكثت أكثر من خمس ساعات أعاني جراء الولادة، وهو ما زاد من سوء حالة مولودي عقب إنجابه وقد أُصيبَ بنزيف حاد في رأسه، إضافة إلى انقطاع النفس لأكثر من خمسة عشر دقيقة وهو ما اضطرنا لنقله إلى مستشفى "رميام" الإسرائيلي "بٌحيفا" لمتابعة حالته".

انتبهت لـ(مُنقذ) عندما نظر حوله بتفرس فلم يجد الجنود الإسرائيليين فقام من مكانه بتروٍ، وخرج من نافذة بجوارنا مفتوحة على مصراعيها، فتتبعته بنظري إلى أن اختفي فجأة، قال رجل عجوز في عقده الخمسين تقريبًا:

- كنت أغادر في ساعة مبكرة من منزلي عندما ينام الناس في "بيت لحم" إلى حاجز شمال المدينة فوجدت أمامي عشرات العمال لا أدري متي يخرجون من بيوتهم في انتظار اللحظة التي يُسمح لهم بالعبور بحثًا عن لقمة العيش لهم ولأطفالهم وأُسَرِهم، وأضطر إلى الانتظار أربع ساعات أخرى حتى الساعة السادسة صباحًا، وحتى يَسمح لنا الجنود

بدخول الحاجز، ومع ذلك بعض أرباب العمل لا يسمحون لنا بالتأخير، ولذلك فإن الوصول إلى مكان عملي في السابعة صباحًا يتوجب عليّ أن أغادر في الثانية عشر ليلًا، ويحتاج كل عامل إلى دقيقتين أو أكثر من أجل عرض أوراقه الشخصية وتصريحه، بعد مرورنا عبر بوابات الكترونية ودواره وبعضنا قد يتعرض لتفتيش دقيق يستوجب خلع ملابسه الخارجية.

ويُكمل بوصفه ساخرًا بمرارة كبيرة:

- هذا نوع من أنواع الإذلال الذي نُلاقيه و والله نقف مثل الغنم، فالغنم أفضل منا، وحتى لا يفقد أحد دوره فإنه لا يغادر الطابور لأي سبب ولا حتي الذهاب لقضاء الحاجة.

سألته باندهاش:

- ولما لا تعترضون؟!

يُحنى رأسه للأسفل بأسى ويُجيب وهو يَكِزُ على أسنانه:

- نعترض!! من يعترض يكون نصيبه الاعتقال أو الحجز أو تمزيق تصريح العمل، ونحن نتحمل ونصبر لأجل لقمة خبز أولادنا.

قلتُ بانفعال:

- أي قانون هذا في العالم يسمح بأن يغادر أحدهم بيته في الثالثة صباحًا للوصول إلي عمله في الثامنة؟

- ألم أقل لك إن الغنم أفضل منا فنحن نقف هنا مثل الحيوانات "أعزكم الله" وسط الشتائم والضرب أحيانًا والحجز، فندخل مثل الدجاج علي المَعَاطَاة.

ثُم سمِعنا جميعًا صوت بوق سيارة يأتي من بعيد، قمتُ أنظر من النافذة فوجدت "مُنقذ" قد جاء بالباص فهمست لهم بأن لا يُصدروا أي جلبة، وسرنا ببطء نحو الباص ونحن ننظر يمينًا تارة ويسارًا تارة أخرى، دلفنا جميعًا للداخل وقام "مُنقذ" بالسير مباشرةً، فالجنود قد اختفوا فجأة من المكان بأكمله.

.....

(2)
قيام دولة

وبعد أن وصلنا وجدتُ المبنى الضخم الحجري الذي يُطلق عليه "قصر مؤتمرات بيت لحم" والمخصص كَمُرفق يعمل كمركز للمؤتمرات الهامة في تلك المدينة، فيقع القصر في الجزء الجنوبي من المدينة مقابل موقع "حمامات سليمان" التاريخي والذي بناه "هيرودس الكبير" منذ حوالي 2000 عام وكانت مصادر المياه الرئيسية للهيكل الثاني والمدينة، وتقع بالقرب منها قلعة البراق أو (قلعة البرك) ، وتسمى أيضًا قلعة مراد، وهي قلعة عثمانية تركية بناها "سليمان الرائع" (Kanunî Sultan Süleyman) في عام 1617م، وهي جزء من المجمع السياحي المفتوح للزوار، الذي يضم متحفًا كبيرًا.

تم بناؤه على بُعد أربعة كيلومترات من "كنيسة المهد" ويَجاوره متحف "قلعة مراد"، واستجابة لمبادرة الرئيس الفلسطيني الراحل "ياسر عرفات" عام 1999 لاستضافة المنتدى الاقتصادي العالمي لعام 2000 في مدينة "بيت لحم"، وللمؤتمرات المحلية والدولية المستقبلية في "فلسطين".

كانت ساحة القصر شاسعة، فيتكون القصر من الخارج من مساحات شاسعة من الخُضرة في كل جوانبه بها أشجار وأزهار زاهية، يتألف القصر من طابقين مصممين على النظام القوطي الذي تضمن استخدام العقد وكتف التدعيم، الذي سمح بتوازن ثقل السقف من خلال دعائم خارج المبنى، وهذا ما أعطى ارتفاعًا أكبر ومساحة أكبر للنوافذ الرئيسية المستخدمة بكثافة للزجاج المعشق، حيث القباب والجدران السميكة المصنوعة من الحجر الكلسي، والأبواب والشبابيك على شكل الأقواس، وهناك عدة نوافذ على جانبيه بشكل

دائري؛ لإضفاء الضوء واللون على الداخل، وهناك أيضًا تلك التماثيل الواقعية في الخارج خصوصًا فوق البوابات لتوضيح القصص الإنجيلية لرعايا الأبرشية الأمّيين بمعظمهم.

يحتوي القصر على غرفة اجتماعات رئيسية وقاعة عرض ومسرح وقاعات اجتماعات وحدائق وغرفة صلاة بين الأديان وكافيتريا، كما هناك مُدرج كبير يمكنه استضافة ما يقرب من 1500 شخص.

دلفنا للداخل واتجهنا مُباشرةً صَوب المُدرج الكبير، كان المكان هادئ تمامًا إلا من أصوات بعض الصحفيين الذين جاءوا لاقتناص الفرصة التي لا تتكرر كثيرًا، جلسنا في الصفوف الأولى، وبعد لحظات دخل عدد من المدنيين وبعض المصورين الذين تمكنوا من وضع كاميرات التصوير في كل جوانب المُدرج، ودخل بعدها رجل طاعن في السن أشيب الرأس والذقن، يرتدي بذلة بيضاء كبياض وجهه، ويضع تلك النظارة الطبية في جيب سُترته التي وضعها على عينه فور وصوله لمكتبه وقال بصوت جهوري:

- أهلًا ومرحبًا بكم أنا أُدعى "ألبرت أرسين أغازريان" مؤرخٌ وباحثٌ فلسطيني أرمني، كُنتُ بقيادة الوفد الإعلامي الفلسطيني لمؤتمر مدريد عام 1991.

ثُم أخذ نفسًا عميقًا وأكمل:

- قبل كل شيء يجب أن تعلموا من أنا جيدًا حتى تصل معلوماتي إليكم دون أن يَشُوبها شائبة.

جلست بأريحة أمام هذا الرجل، فكلامه على ما أظن ثمين للغاية، فاسترسل:

- لقد ولدتُ في عام 1950م في الحي الأرمني في البلدة القديمة في القدس لوالدين نازحين من الأناضول هربًا من المجزرة التي أشرف عليها حزب الاتحاد والترقي الحاكم للدولة العثمانية آنذاك بالأرمن، درستُ في كلية "بيرزيت" (التي أصبحت فيما بعد جامعة بيرزيت)، حيث نِلتُ درجة الدبلوم في الدراسات الشرق أوسطية، ثُم انتقلتُ إلى الجامعة الأميركية في بيروت، حيث حصلتُ منها على درجة البكالوريوس في العلوم السياسية، وعلى درجة الماجستير في الدراسات العربية المعاصرة من جامعة "جورج تاون".

تمهل قليلًا في الحديث عندما دخل فجأة عامل النظافة ليعطيه فنجان القهوة الذي يألفه فشكره، ونظر إلينا وأضاف وهو يُلَوِح بكلتا يديه:

- عملتُ في صحيفة القدس وكنتُ عضوًا مؤسسًا في جمعية الملتقى الفكري العربي في القدس، وعملتُ أيضًا في الترجمة لإجادتي اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والأرمنية والعبرية والتركية والإسبانية، وأعمل حاليًا أستاذًا للتاريخ ومديرًا للعلاقات العامة في جامعة "بيرزيت"، في عام 2006 نِلتُ وسامًا رفيعًا من ملك بلجيكا "ألبير الثاني" تقديرًا لما قدمته من خدمات لشرح قضية القدس خصوصًا والقضية الفلسطينية عمومًا على الساحة الدولية.

ثُم أضاف:

- ولمن يُحب المُطالعة يعلم بإصدار كُتبًا لي بالشراكة مع مؤلفين آخرين، الأول بعنوان "خارج القدس؟: أصوات مسيحية من الأرض المقدسة" في عام 1997، والثاني بعنوان "أصوات مسيحية من القدس: عشية الألفية الثالثة" في عام 1998، وشاركتُ بدراسةٍ في كتابٍ جماعي صدر باللغة الفرنسية تحت عنوان "حوض المتوسط بين العقل والجنون" في عام 1998.

ارتشف ببعضٌ من القهوة التي أمامه وقال بابتسامة عذبة على شفتيه:

- هذا غيضٌ من فيض، فلا أحد أفضل من أحد هنا إلا بالتقوى.

ثُم قام بإسدال الستائر لتشغيل تلك الشاشة الإلكترونية، التي كانت مُجهزة قبلًا للشرح عليها مباشرة، فظهرت أمامنا خريطة "فلسطين" بكل تفاصيلها الدقيقة وقام بإمساك مؤشرًا ضوئيًا وبدأ بِقوله مُشيرًا على الخريطة أمامه:

- سأتحدث عن "فلسطين المُحتَلة".

سكت هنيهة، ونظر يتفرس في وجوهنا ثُم أكمل بخيبة أمل:

- كُنتُ أأمل أن تُعكر تلك الكلمة صفوة مزاجكم، لكن هذا وللأسف الشديد ليس خطأكم، فنحن تعودنا على سماع كلمة "فلسطين" وتلاصقها كلمة "المُحتَلة" التي جعلتنا عبيدًا بعدما كُنا ملوكًا.

قام بارتشاف بعض الماء ليُهدئ من روعه قليلًا واسترسل:

- فالوصف الذي تُطلقه بعض دول العالم على الأرض الفلسطينية بالحدود التي كانت تعرف بها فلسطين أيام الانتداب البريطاني، وهو يشمل ما يعرف بالأراضي الفلسطينية المحتلة من طرف الكيان الإسرائيلي، بالإضافة إلى الأراضي التي تقع فيها دولة إسرائيل الحالية، وهذا المصطلح (فلسطين المُحتَلة) يستخدمه من لا يعترف بإسرائيل أو لا يعترف بشرعية حكم قادتها على منطقة فلسطين، فهم يعتبرون أن فلسطين احتلت على مرحلتين: الأولى في عام 1948 والثانية في 1967 وهو الأحق دوليًا، ويحاج المؤرخ "إيلان بابي" بأن استخدام مصطلح "احتلال" هو استخدام يؤثر على قراءتنا للوضع جاعلًا منه قراءة خاطئة، وأن ما قامت وتقوم به إسرائيل سواء في حدود الضفة الغربية وقطاع غزة أو في المناطق التي سيطرت عليها عام 1948 يجب تسميته "استعمار".

فالأفضل أن نقول "فلسطين المُستعمرة" هذا من جهة اللقب؛ أما دولة فلسطين كمصطلح يشير إلى كيانات سياسية نادت بها جهات مختلفة، أو تنتمي لها كيانات سياسية غير مستقلة حاليًا، وتطالب بإنشائه على جزء أو كل أرض "فلسطين" التاريخية، وهو الأمر الذي يطمح إليه كثير من الفلسطينيين، لم تكن أي من تلك الكيانات مستقلة حتى الآن، والشعب الفلسطيني هو مصطلح يستعمل للإشارة إلى الأمة الناطقة بالعربية والذين تعود أصولهم إلى فلسطين.

حاليًا تطالب منظمة التحرير الفلسطينية بإنشائه على جزء من أرض فلسطين التاريخية، منذ إعلان الاستقلال الفلسطيني رمزيًا عام 1988 بالجزائر، حيث بدأت تفاوض السلطة الفلسطينية رسميًا منذ 1994 في مسعى لإنشائها على حدود الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967 وهي الضفة الغربية وقطاع غزة وبتحديد القدس الشرقية عاصمة لهذه الدولة، هو ما كان سيشكل فعليا 22% من أرض فلسطين التاريخية، ويقطنها قرابة 40% من الشعب الفلسطيني في العالم، أسفرت هذه المفاوضات اليوم عن تقسيم تلك المناطق إلى أقسام إدارية حسب المناطق السكنية المختلفة فضلًا عن المتطلبات العسكرية الإسرائيلية.

وأخذ نفسًا عميقًا وأكمل:

- وضعها الحكم العثماني عام 1840، وضمت أغلب مساحة سيناء، عدلت في مرحلة ما بعد حفر قناة السويس عام 1892م. استمر الاعتراف الدولي والمصري بهذه الحدود حتى عام 1920م، تمثل هذه الحدود أول حدود هندسية دقيقة وكاملة لفلسطين في العصر الحديث ومن أهم ما فيها أنها تعتبر سيناء جزء لا يتجزأ من فلسطين وقناة السويس حدود بين "فلسطين" و "مصر"، ومن المعلوم أن مصر استندت الي معاهدة 1906 إلى جانب خارطة الانتداب عام 1920 لترسيم الحدود مع إسرائيل وبما أن خارطة الانتداب غير ملزمة للفلسطينيين؛ لأنهم لم يصبحوا دولة مستقلة تقبل بهذه الحدود فهم يرجعون فقط إلى اتفاقية 1906م، وهي معاهدة تعتبر سيناء أرض فلسطينية تحت الإدارة المصرية حيث تصف في بندها الأول الخط الممتد

من رفح حتى طابا بأنه خط فاصل إداري، وليست حدود دولية.

كما أن "مصر" قبلت فرمان 1892م وكانت دولة مستقلة حينها وهي التي رسمت آخر حدود بين البلدين، هذه المعاهدات وغيرها مُلزمة لمصر وفق معاهدة فيينا لقانون المعاهدات ذات الأثر الرجعي، فمصر كانت دولة مستقلة يوم وقّعت المعاهدة الأمر الذي يلزمها قانونا ولا يلزم الفلسطينيين بغيرها إلا أن قبلوا عبر قيام دولة فلسطينية مستقلة بعد الاعتراف بإسرائيل وهو ما لم يحدث حتى الآن.

جذب المقعد تجاهه ليجلس عليه، وقام بالإشارة بالمؤشر الضوئي إلى الشاشة الإلكترونية على حدود فلسطين:

- وضع الانتداب حدودا لفلسطين عام 1920م، في هذه المرحلة من الانتداب تم نقل سيناء من وضعها تحت الإدارة المصرية إلى جزء من الأراضي المصرية مع العلم أن الانتداب لا يملك صلاحية ترسيم الحدود بين الدول الواقعة تحت سيطرته إلا أن قبلت هذه الدول بعد الاستقلال بهذه الحدود وهو ما يجعل "فلسطين" الدولة العربية الوحيدة التي يحق لها عدم قبول حدود الانتداب أو قبولها، وتم تعديل هذه الحدود عام 1923م، وقد شملت التعديلات اقتطاع أراضي من سوريا أهم ما فيها أنها اعتبرت بحيرة "طبريا" بأكملها تابعة لفلسطين وبعض المناطق المجاورة.

وهناك حدود أصدرتها الأمم المتحدة بشكل مخالف لميثاق الأمم المتحدة كما أنه صدر وفق الفصل السادس لميثاق الأمم المتحدة وهو ما يجعلها غير ملزمة، شمل هذا

القرار تقسيم الاراضي الفلسطينية المعرفة وفق حدود الانتداب، بين الفلسطينيين واليهود مناصفة تقريبًا، أصبحت إسرائيل واقعا بعد حرب 1948 إثر الحرب التي شنها العرب نيابة عن "بريطانيا"، بهدف تقسيم فلسطين، وبحجة نصرة أهل فلسطين، فنشأ عنها حدود الهدنة (هدنة الغدر) والتي أعطت ما تبقى من فلسطين وهو أقل من الربع للدول العربية لتتقاسمه فيما بينها وبالتالي ليس فقط تمنح إسرائيل حرب استقلال على أكثر مما منح لها بقرار الأمم المتحدة، ولكن أيضًا منع قيام دولة فلسطينية على ما تبقّى من فلسطين.

وهناك حدود الأمر الواقع لما قبل حرب 1967م، وقد اعتمد اعتبار هذه الحدود أساسًا للحل بين الفلسطينيين والإسرائيليين عبر الاتفاقات التي جرت بين منظمة التحرير وحكومة العدو الإسرائيلي من خلال المفاوضات.

ثُم ارتشف بعض الماء من جديد وقال مُرهقًا وهو يحاول جاهدًا رسم ابتسامة على ثغره:

- سنكمل بعد الاستراحة، لكن في قاعة العرض، استمتعوا.

وقام بالخروج مباشرة من المَدرج فوضعت رأسي على المقعد أمامي فحتمًا سينفجرُ عقلي من كل تلك المعلومات القيمة التي مازالت لغزًا ثمينًا لم يُحل بعد، قام "مُنقذ" من مكانه وسألني إذا احتجت أي شيء من كافيتريا القصر فطلبت كوبًا من القهوة لكي أفيق من هذا التّيه.

*****

بعد أن انتهت الاستراحة قمنا مُسرِعين متجهين صَوب قاعة العرض عبر تلك الردهة الطويلة التي لم أنتبه لها مذ دخولنا للقصر، دلفنا داخل القاعة، لكنها لم تكن تختلف كثيرًا عن المُدرج غير أن بها ستائر زاهية في جميع جوانبها قاتمة الحُمرة ولم تكن بها شاشة إلكترونية، تعجبت من ذلك، فكيف سيُكمل هذا المؤرخ تلك المُحاضرة!!، وبعد أن استعاد كل شخص مكانه، دخل المُؤرخ وهو يجذب خلفه جهاز مسدل بغطاء أسود قاتم وقام بوضعه في منتصف المسافة بيننا وبينه، وقام فجأة بإزاحة ذاك الغطاء فظهر من الأسفل عَمود خشبي وفوقة مجسم ثُماني الأبعاد معشق بالزجاج الشفاف، تفاجأت بقول "منقذ" بنبرة عالية:

- هذا هولوجرام؟!

نظرت إليه نظرة تعجبية فقال هامِسًا لي:

- الهولوجرام أو (الهولوجراف) هو أحد تطبيقات الليزر؛ لإنتاج واقع افتراضي مجسم، وقد سبق الحاسب الآلي في هذا المجال، يعطي صورًا تخيلية مجسمة ثلاثية الأبعاد مسجّلة لكل المعلومات، والتي تنتج الهولوجرام، وهو عملية تسجيل لتداخلات الموجات الصادرة من شعاع الليزر على وسيط عالي الحساسية للضوء، حيث ينقسم شعاع الليزر إلى شعاعين (شعاع المصدر وشعاع الجسم) ويتقابلا على الوسيط الحساس، فيقوم بتسجيل التداخل بين الشعاعين ويظهر هذا التداخل على شكل ما هو معروف فيزيقيًا باسم (هدب التداخل)، وعند إعادة إضاءة هذا الوسيط المسجل

عليه هدب التداخل بنفس شعاع الليزر، يظهر في الفراغ صورة مجسمة (ثلاثية الأبعاد) للجسم.

انبهرت من هذا الحديث الشيق وتمنيتُ أن يُكمل "مُنقذ" استرساله عن هذا الجهاز، لكن المؤرخ قام بإسدال جميع الستائر حتى أصبحت أرى يدي بصعوبة، وضغط على زر تشغيله فأضاءت تلك البلورة الكُروية التي ظهرت في منتصف المُجسم، وأضاءت جميع جوانب المُجسم وقام زجاج المُجسم الشفاف بإرجاع تلك الأشعة على هيئة سيلٌ منها حتى امتلأ المُجسم بالإضاءة، ثُم قام المؤرخ بوضع يده عليه من فوق بتلويحة بسيطة مثل السَحَرَة، تفاجأنا بخروج صورة ثلاثية الأبعاد حية للكرةِ الأرضية.

كاد عقلي أن يطير من هذا الشيء، فلم أرى له مثيل في حياتي بأكملها، ثُم ضغط على الزجاج بإصبعيه السبابة والإبهام وقام بتقريب الصورة حتى اقترب تمامًا من دولة فلسطين، لكنها كانت قديمة بعض الشيء فقال مسترسلًا حديثه:

- بدأت الإشارة إلى الفلسطينيين كمجموعة في نهايات الدولة العثمانية وقبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وكما تمت المطالبة بالاستقلال من قبل مجلس النواب الفلسطيني السوري، بعد الهجرة التي تمت في حرب سنة 1948 وكذلك الهجرة الثانية في حرب سنة 1967 أصبح مصطلح الشعب الفلسطيني لا يشير فقط إلى البلد الأصلي بل أيضًا إلى الإدراك لماضٍ مشترك ووطن مشترك، يعيش تقريبًا نصف الفلسطينيين في أجزاء من المناطق التي كانت تحت

الاحتلال البريطاني وهي المنطقة المعروفة اليوم بإسرائيل، والضفة الغربية و "قطاع غزة" و "القدس الشرقية".

كانت إعلان الاستقلال حكومة "عموم فلسطين" وهي حكومة تشكلت في غزة خلال حرب "1948" برئاسة "أحمد حلمي عبد الباقي"، قام "جمال الحسيني" بدورة عربية لتقديم إعلان الحكومة إلى كافة الدول العربية والإسلامية وجامعة الدول العربية، وجاء في نص مذكرة الإعلان "بالنظر لما لأهل فلسطين من حق طبيعي في تقرير مصيرهم واستنادًا إلى مقررات اللجنة السياسية ومباحثاتها، تقرر إعلان فلسطين بأجمعها وحدودها المعروفة قبل انتهاء الانتداب البريطاني عليها دولة مستقلة وإقامة حكومة فيها تعرف بحكومة "عموم فلسطين" على أسس ديمقراطية."

ثُم قام بالتقريب أكثر وأكثر حتى ظهرت حدود دولة "الجزائر":

- وتم إعلان قيام دولة فلسطين خلال اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني التاسع عشر الذي أقيم في "الجزائر" على الأرض الفلسطينية وعاصمتها "القدس"، لكن الدولة لم يتم الاعتراف بها من قبل الأمم المتحدة، ومن نص مذكرة الإعلان "بسم الله وبسم الشعب أعلن قيام دولة "فلسطين" فوق أرضنا الفلسطينية وعاصمتها "القدس الشريف".

فهذه الدولة واقعة تحت الاحتلال وهو ما يجعلها عمليًا غير قادرة على ممارسة دورها السيادي المتعارف عليه بين الدول، وأيضًا في كون هذه الإعلانات لم تحدد حدود دقيقة للدولة الفلسطينية، فحدود إعلان غزة وإعلان الجزائر

تحدثت عن الأرض الفلسطينية التي يعرفها الفلسطينيين، ومن المعروف أن هذه الحدود متنوعة، ولكن النضال الفلسطيني في كل تاريخه يعتبر حدود "فلسطين" على أرض "فلسطين" من نهر الأردن حتى البحر المتوسط أي تضم الضفة الغربية و "غزة" وأرض 48، أي كل "فلسطين" التاريخية وحتى الرفض العربي لمشروع التقسيم لسنة 1947 كان من بين أسبابه قضية الحدود التي رأوها مجحفة آنذاك.

ثُم عَدل من نَظّارَته وقال بِلُطف مُبالغ فيه:

- والآن دعوني أسرد لكم هذا المقال الشيق؛ لتكملة ما بدأناه.

شرع بإمساك عدة أوراق مُهتَرِئة بعض الشيء وقرأ منها:

"حصلت منظمة التحرير الفلسطينية على مقعد مراقب في الأمم المتحدة منذ عام 1974، لاحقا نشأت سلطة حكم ذاتي داخل الضفة الغربية وقطاع "غزة" كنتاج لاتفاق "أوسلو" عام 1994، إلا أنها لم تشمل سوى إدارة الشؤون المدنية في التجمعات السكانية الكثيفة من المنطقتين المسجلتين "أ" و "ب" بحسب الاتفاقيات، بينما ظلت معظم المساحات المصنفة مناطق "ج" تحت السيطرة الإسرائيلية، ناهيك عن الأراضي المصادرة لصالح التوسع الاستيطاني الإسرائيلي، لم تَعِد أو تنص اتفاقيات السلام على قيام دولة فلسطينية، إلا أن جهودا بذلت للحصول على اعتراف دولي بالتسمية "دولة فلسطين" في الأمم المتحدة التي تَمَخَضت عن

إقرارها عام 2012؛ وقررت السلطة عام 2013 الاستخدام الرسمي لاسم وشعار "دولة فلسطين" في الوثائق والأختام وأوراق معاملات السلطة الفلسطينية. لم تعكس الاعترافات الدولية آثارا عملية بانحسار السيطرة الإسرائيلية على الأراضي الفلسطينية المُحتَلة أو تغيير إيجابي على السلطات الإدارية للسلطة الفلسطينية.

ومن 193 دولة في الأمم المتحدة، اعترفت 138 دولة فقط بالدولة الفلسطينية. فبعض الدول، عبّرت عن اعترافها بدولة "فلسطين" على حدود الرابع من حزيران يوليو 1967 (أي الضفة الغربية، وقطاع غزة، والقدس الشرقية)، وهو ما يشكل أراضي كانت تحت سيطرة دول عربية قبل حرب الأيام الستة.

معظم الفلسطينيين من المسلمين، وتبلغ نسبة المسلمين هناك 87.5%، كما أن هناك أقلية مسيحية تتوزع في كل من مدينة "القدس" و "رام الله" و "بيت لحم" و "غزة" ويبلغ نسبتهم حوالي 9% من السكان أغلبهم ينتمون إلى الكنيسة "الارثودوكسية" والذين تعود أصول تواجدهم في الأراضي المقدسة إلى الأيام الأولى للكنيسة "الأرثوذكسية الشرقية"، كما أن هناك فلسطينيين سامريين ودروز في مدينة "نابلس" يُشكلون ما نسبته 1% من السكان.

إن كل الاتفاقيات التي وقعها الفلسطينيين لا تسقط حقهم في ترسيم حدودهم خارج إطار ما اقتطعه الانتداب بل أكثر منه، حتى الآن للأسباب الاتية:

١- إن ما جرى هو الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود وهو أمر لا يتضمن الاعتراف بحدودها، وإنما يضعها قيد التفاوض.

٢- إن الاعتراف بحدود إسرائيل على أرض الثمانية وأربعين مشروط بعودة اللاجئين و "القدس" وقيام دولة في حدود الـ67، وتفكيك المستوطنات وإطلاق سراح الأسرى وكل هذه الشروط لم يتحقق أيٌ منها.

٣- أنه حتى في حال وقع الفلسطينيين على وثيقة من هذا النوع فهي غير ملزمة نظرًا لأن الشعب الفلسطيني واقع تحت الاحتلال وبالتالي فهناك شبهة رضا، وعدم قدرة على الالتزام، وهو الأمر الذي يُراد التحايل عليه بالاستفتاء، حيث يراد الحديث عن أن الاستفتاء يلغي شبهة الرضا، يصب في سياق هذه الحيل ما قاله "ياسر عبد ربه" بعد اعلان "كوسوفو" عن استقلالها سنة 2008، حيث صرح أن على الفلسطينيين أن يعلنوا عن دولتهم من طرف واحد كما فعلت "كوسوفو" وهو ما يعني أن يقول الفلسطينيين أن كل ما وقعوه ملزم لهم دون أي ضمانات من إسرائيل بالمثل ومن أخطر هذه الأمور أنها تعترف بإسرائيل كما أنها ترفع عبئ إلزام إسرائيل بالاعتراف بفلسطين.

٤- أن قيام دولة فلسطينية كأمر واقع على "غرار تايوان" أو "كوسوفو" لا تعترف بإسرائيل يعني حق الفلسطينيين في ترسيم حدودهم مع جيرانهم حتى لو كانت إسرائيل لا زالت تحتل أجزاء من فلسطين، وذلك دون إلزامية أي من الاتفاقيات التي وقعتها الدول العربية مع

إسرائيل أو بين بعضها البعض، بما في ذلك حق الرجوع إلى آخر اتفاقية موقعة مع جيرانها قبلت بها فلسطين وقبلوا هم أيضا بها ومن ضمنها "حدود فرمان 1892م" والتي أكدتها اتفاقية 1906م، لمرحلة ما بعد الانتداب البريطاني على مصر.

٥- إن ما تخافه إسرائيل أن يتحول أي جزء محرر من الأرض الفلسطينية الي دولة أمر واقع لا تعترف بإسرائيل وتحكمها سلطة مقاومة، فهذا الأمر كان مستحيلًا في الماضي مع وجود الدور العربي خصوصًا عام 1948، والذي منع بالقوة إمكانية توحد ما تبقى من الأراضي الفلسطينية في دولة مستقلة؛ أما اليوم فلا يفصل بين الفلسطينيين وهذا الأمر إلا قبول مصر بسيادة مصرية فلسطينية فقط على الحدود بينهما أو الزامها بذلك، الأمر الذي لا تقبله "مصر" كما أنه ليس من صلاحياتها فهي أخذت (أرضها) على حساب اعتبار كامل التراب الفلسطيني أرض إسرائيلية بما في ذلك حدودها مع قطاع "غزة" وبالتالي فإن مشكلة الفلسطينيين تعتبر وفق "كامب ديفيد" مشكلة داخلية إسرائيلية إلى أن يجد الفلسطينيون حلًا مع إسرائيل."

وضع تلك الأوراق على المكتب وأكمل:

- يُمَثِل مشروع قيام دولة فلسطينية المشروع الرابع خلال تاريخ "فلسطين"؛ لإقامة دولة، والأول من نوعه في العصر الحديث. حيث قامت لفلسطين ثلاث دول في العصر القديم وكان لها تأثير عظيم في حكم العالم، ولم يقم لها دولة في العصر الحديث وهو ما يطالب به الفلسطينيون اليوم.

ثُم أضاء المؤرخ جميع إضاءة القاعة فجأة، فشعرت بأنني أصبت بالعمى، وضعت يدي على عيني لعودتها لوضعها الطبيعي، أطفأ المؤرخ الهولوجرام ونظر إلينا ورسم ابتسامة صادقة هذه المرة:

- وأخيرًا سأترككم مع تلك الألحان الشجية التي يتردد صَدَها في جميع أنحاء فلسطين، ولن يخفت جوهرها إلى أن تقوم الساعة، ولكن سأعطيكم نبذة عن تلك الألحان فهذا هو النشيد الوطني الفلسطيني أو السَلام الوَطني الفلسطيني أَو نشيد فدائي من أناشيد الثورة الفلسطينية، اعتُمِد ليكون النشيد الوطني الرسمي للفلسطينيين بقرار من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٧٢م خلفًا لنشيد موطني الذي كان بمثابة النشيد الوطني غير الرسمي للفلسطينيين منذ عقد ١٩٣٠م، قامت حركة فتح بتغيير اسمه من "فدائي" إلى "نشيد الثورة الفلسطينية" في إطار حملتها لتحويل الأسماء الفتحاوية إلى أسماء فلسطينية عامة، صادق عليه مجلس الوزراء الفلسطيني في السلطة الوطنية الفلسطينية سنة ٢٠٠٥م؛ ليصبح النشيد الرسمي لها.

ثُم أضاف:

- ورغم اشتراط إسرائيل عدم استخدام نشيد موطني للجلوس في مفاوضات مع الفلسطينيين، إلا أنه لايزال قطاع واسع من الشعب الفلسطيني يعتبر نشيد "موطني" نشيدًا رسميًا له. أما اليوم، فيُستخدم "نشيد موطني" رسميًا نشيدًا وطنيًا لجمهورية العراق منذ العام ٢٠٠٣م. واستخدمت

حركة فتح نشيد "فدائي" في إطار تحويل أسماء مؤسساتها إلى أسماء فلسطينية عامة، وجاء لاستبدال نشيد "العاصفة".

فَمَسح العرق الغزير الذي سَكن جبهته، ثُم قام بتشغيل مُكبر الصوت الذي كان موصولًا بهاتفه المحمول، وقام بتشغيل النشيد الذي كان كلماته تتردد علي لسان الحاضرين دون وعي منهم فكان يقول:

فدائي فدائي فدائي يا أرضي يا أرض الجدود

فدائي فدائي فدائي يا شعبي يا شعب الخلود

بعزمي وناري وبركان ثأري وأشواق دمي لأرضي وداري

صعدت الجبالا وخضت النضالا قهرت المحالا حطمت القيود

فدائي فدائي فدائي يا أرضي يا أرض الجدود

فدائي فدائي فدائي يا شعبي يا شعب الخلود

بعزم الرياح ونار السلاح وإصرار شعبي لخوض الكفاح

فلسطين داري ودرب انتصاري فلسطين ثاري وأرض الصمود

فدائي فدائي فدائي الجدود — يا أرضي يا أرض

فدائي فدائي فدائي الخلود — يا شعبي يا شعب

بحق القسم تحت ظل العلم الألم — بأرضي وشعبي ونار

سأحيا فدائي وأمضي فدائي تعود — وأقضي فدائي إلى أن

فدائي فدائي فدائي الجدود — يا أرضي يا أرض

فدائي فدائي فدائي الخلود — يا شعبي يا شعب

ثُم قال المؤرخ خاتمًا تلك المُحاضرة الشيقة:

- شكرًا جزيلًا لِحُسن استماعكم.

(3)
مدنية الجبارين

قمتُ مُتكاسلًا من مقعدي فجذبني فجأة "مُنقذ" من يدي وهو يركض ببطء خارج قصر المؤتمرات، جذبت يدي منه واسترسل هو بالركض ولم ينتظرني، فهذا الرجل سَيُصِيبُني بالجنون يومًا ما لولا أني أعرفه جيدًا من صغري، وجدته يقف فجأة على جانب الطريق وجاءت سيارة مُسربَلة بالسواد وقفت أمامهُ مباشرةً، وأخذت النافذة الزجاجية في الإنسدال بِبُطء ووقفتُ من بعيد أنظر بِشغف لذلك الغامض الذي سيبرز بعد قليل فانتظاري لنتيجة الثانوية العامة أهون بكثير من هذا.

وجدتُ "مُنقذ" يتحدث مع هذا الغامض الذي لم أتبين ملامحه بعد، ويبتسم بين فِنية وأخرى، ومن ثَم نظر لي وأشار بيده تجاهي لأتقدم نحوه، فتقدمت بِبُطء حتى أصبحتُ أمام باب السيارة فقال "مُنقذ" بمرح بادي على وجهه وهو يطوف حول السيارة للولوج للداخل:

- ادخل بسرعة، لم يتبق سوى ساعة على الأقل على الاجتماع.

دلفتُ للداخل وجلست بجوار شاب في عقده الأربعين تقريبًا قمحي البشرة، ذو شعر أشيب قليلًا مُنسدل على كلا الجانبين بنعومة، ويرتدي بذلة سوداء قاتمة، لكن ملامحه هادئة كطفل رضيع يبتسم ببراءة.

دُهشت عندما نظرت له وتلعثمتُ قليلًا في الحديث، لكن رحبتُ به وأخبرته بعملي في الصحافة الفلسطينية، وبمدى عِشقي له منذ نعومة أظفاري فكان هو قدوتي، والذي تمنيتُ

كثيرًا أن أصبح مثله في كِبري، لكن دائمًا تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُفن، فقال مشدوهًا:

- أتعرِفُني؟!

قلتُ وأنا مغمض العينين وكأنني أقرأ من كِتابٍ قد انبلجَ على مِصراعيه في مُخيلتي:

- عالم الأثار الشهير "ديمتري قسطنطين برامكي" والذي أعتبره أول عالم آثار عربي فلسطيني، شغلتَ منصب كبير المفتشين في دائرة الآثار التابعة لحكومة الانتداب البريطاني. ودرّستَ في الجامعة الأمريكية في بيروت علم الآثار. قمتَ بحفريات في مواقع أثرية في العالم العربي أهمها موقع خربة المفجر في منطقة "أريحا" حيث وجدت "قصر هشام"، وحفرياتك في "تل الغسيل" في سهل البقاع بـ "لبنان"، واكتشافك لموقع "جميرا" في "دبي".

أخذتُ نفسًا عميقًا وأضفت:

- ولدتَ في القدس لعائلة عربية مسيحية أرثوذكسية. درست في مدرسة "سانت جورج". عام 1927م، بدأت العمل مفتشًا متدربًا في دائرة الآثار التابعة لحكومة الانتداب البريطاني قبيل عيد ميلادك الثامن عشر متأثرًا بأخيك "جليل" وترقيت بعدها وأصبحت مفتش آثار كبير، درست التاريخ القديم وعلم الآثار بالمراسلة في "جامعة لندن" وحُزتَ على شهادة البكالوريوس، رقيت أيضًا إلى كبير المفتشين في دائرة الآثار "بدل (روبرت هميلتون) الذي عين مديرا للدائرة".

اعتدل في جلسته ونظر لي بفضول وبابتسامة:

- أعتقد أننا سنصبح أصدقاء فيما بعد، فأنا أعشق المثقفين كثيرًا.

- لكن مازال هناك المزيد.

استرسلت بالحديث:

- وعَمِلتَ في حفريات أثرية في شتى أرجاء "فلسطين" ونشرت التقارير في فصلية دائرة الآثار القابعة في "فلسطين". وقد وجدت كتابة على الجدران تذكر "هشام بن عبد الملك".

أضفتُ وأنا أتساءل:

- وأريدُ بِشدة معرفة ما كُتبَ على تلك الجدران؟ وما هي النجمة التي كانت بالقصر؟

فضحك بصوت هامس وقال وهو يُربت على كَتِفي:

- وهذا ما سأتحدث عنه هناك في الاجتماع، لكن أخبرني من أين حصلتَ على تلك المعلومات؟!

قلت بافتخار وأنا أرفع رأسي عاليًا قليلًا:

- أنا صحفي وهذه المعلومات ماهي إلا مجرد قطرة من بحر.

وكنت أريد الحديث أكثر، لكن اختفت فجأة المباني العملاقة التي كانت تجاورنا طوال الطريق وبدأ يظهر على جانب الطريق نهر "الأردن" الذي يقع في الضفة الغربية من مدينة "أريحا".

توقفت السيارة في منطقة خالية من السكان، وهبطنا جميعًا نستنشق ذاك الهواء العليل الآتي من النهر وتمشينا قليلًا عبر الوديان والسهول البارزة في المدينة فكانت مباني حجرية مُتقادمة الطُراز والإنشاء، لكنها متهدمة كأنها تعرضت للقصف منذ فترة، اشرأبت أعناقنا عندما رأينا هذا المبنى الضخم المحاط بالرمال من جميع الجهات، رأيت على مدخله فتاة شقراء جمالها ينافس ملكة جمال العالم بمراحل عدة، ترتدي فستانًا قاتم الحُمرة مُزخرف بالياقوت اللامع، يبرز حول عُنقها سِلسلة ذهبية في منتصفها جوهرة من الزُمرد الخالص، وعلى خديها بعض النمش المحبب للعين والذي يفصله أنف بارز قليلًا وعينان عسليتان ساحرتان، وشعرها الناعم المُنسدل على كتفيها بنعومة بالغة تجعلك تفقد عقلك.

تفاجأت بـ "مُنقذ" وهو يُلوح بكلتا يديه أمامي فانتبهت له:

- ما الأمر؟

فقال بضحكة ساخرة لم يستطع كبحها وهو يعقِد ساعديه أمام صَدره:

- أرى أنك قد فُتِنتَ يا صديقي!

فُتِنت! هذه كلمة أقل بقليل مما شعرت به فهمستُ وأنا ما زلت شاخص البصر:

- لقد أصبحتُ سكرانًا بالحب.

تنهد عالم الأثار "ديمتري" وهو يتقدم لتلك الحسناء، وأسرعت خلفه بِهرولة خفيفة فضحك "مُنقذ"، لكني لم أهتم لأمره فقد أصاب الحب تلابيب فؤادي وأصبح القلب يهيم في سعادة بالغة، عدلت من هندامي عندما صافح "ديمتري" تلك الحسناء، فقامت بدورها وصافحتني أيضا، تيبست قدمي وجسدي بأكمله عندما شعرتُ بنعومة جسدها، انتبهت عندما وكزني "مُنقذ" بإصبعه لكي يُصافحها هو الأخر فعاجلنا "ديمتري" بقوله:

- هذه (صُمود اكرم أكورجال) ابنة أبرز علماء الآثار في العالم من مدينة (طولكرم) الفلسطينية.

ثُم أضاف:

- كان والدها صديق مخلص، متخصص في "الدراسات التاريخية والجغرافية" في جامعة (برلين) بألمانيا، وستصبح يومًا ما عالمة أثار مشهورة.

احمرت وجنتها، فبرز النَمَش أكثر بريقًا كأنها مصابيح تَنير هذا الوجه الملائكي، وضحكت فسكرتني أكثر بضحكتها، وقالت بصوت ناعم رقيق:

- هذا بفضلك أستاذي.

نظر "ديمتري" نحونا وهو يشير بسبابَته إلينا:

- وهؤلاء صحفيين مُتميزين جاءوا لتوثيق هذا الاجتماع.

تنحنحت "صُمود" كأنها تذكرت شيئًا ما:

- هناك عامة من الناس جاءوا مُصممين على حضور هذا الاجتماع.

فقال "ديمتري" وهو يضع يديه أسفل ذقنه:

- اتركيهم لي، واذهبي مع هؤلاء الصحفيين وأخبريهم بتفاصيل الوضع.

أومأت بإيجاب ودلفت لداخل المبنى الضخم، وبدأتُ بالسير خلفها تاركًا مسافة خطوة واحدة بيننا وقالت:

- هذا هو قصر "هشام بن عبدالملك".

وخيم الصمت علينا بعدها طول الطريق، فسحر هذا القصر يصعب عدم التمعن في كل تفاصيله الدقيقة، فلقد ولجنا من مدخل رئيسي يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية، ويؤدّي المدخل إلى ساحة مكشوفة يُعرض فيها بعض قطع وبقايا أثرية أخرى، ويقع شمال تلك الساحة بركة ماء بُلطت أرضيتها برسومات من الفسيفساء، وإلى الغرب من البركة والساحة المكشوفة يقع مدخل القصر الداخلي، ويؤدي إلى ساحة رحبة محاطة بغرف وقاعات.

أما المسجد العام فيقع إلى الشمال من الرواق الشرقي، وتظهر في الجدار الجنوبي للمسجد حنية المحراب التي تشير إلى اتجاه مكة، وأغلب أجزاء المسجد مكشوفة، فيما عدا المنطقة القريبة من المحراب، حيث كان يتقدمها رواق معقود يستند على مجموعة من الأعمدة.

ويصل ممر باتجاه الشمال بين مبنى القصر والحمام الضخم، والذي تتقدمه بركة ماء، ويتكون من قاعة مربعة

المسقط، وسقفت بقبة تستند على ست عشرة دعامة، وزينت أرضيتها بزخارف من الفسيفساء، تتكون من ثمانية وثلاثون سجادة ذات تشكيلات هندسية ونباتية، وفي النهاية الشمالية للأرضية تصل إلى الديوان أو غرفة الاستقبال، والذي يوجد به أشهر وأجمل اللوحات الفسيفسائية، وتتألف من عدة تصاوير تشكّل أرضية متصلة تمتد على شكل سجادة واحدة، وإلى جانب هذه الأرضية الضخمة، بعض الأطلال، وهناك متحف صغير يضمّ مجموعة من الأواني الخزفية.

توقفنا في غرفة الاستقبال والتي كانت ممتلئة بالمقاعد الخزفية وكانت هناك منصة في منتصف القاعة وموضوع في مقدمتها لوح مكسور من المرمر كُتب عليه اسم الخليفة "هشام بن عبدالملك" فجلسنا في المقدمة التي كانت علي شكل حدوة حصان أمام المنصة وبعد لحظات جاء بعض العامة والصحفيين والمصورين لهذا الحدث الهام وجاء خلفهم مُباشرةً عالم الأثار "ديمتري" فاتجه صوب المنصة وقال بصوته الجهوري:

- سنبدأ الاجتماع الآن.

ثُم هتف وعينيه مصوبة على بعض الأوراق أمامه:

- سأتحدث عن مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن والشام "أريحا"، هي مدينة فلسطينية تاريخية قديمة تقع في الضفة الغربية بالقرب من نهر الأردن وعند شمال البحر الميت، هي عاصمة محافظة أريحا وهي أقدم المدن في التاريخ، كانت تحت الإدارة الأردنية، وبعد ذلك احتلتها إسرائيل، وفي عام 1994 استلمت السلطة الوطنية

الفلسطينية إدارة المدينة، تعتبر مدينة أريحا أخفض منطقة في العالم، تُعرف أيضا باسم مدينة القمر.

هي تبعد حوالي ميل من الغرب ومكانها يعرف بتلال أبو العلايق شماله تل السلطان وكانت مبنية من الطوب اللبن وكان حولها خندق منحوت من الصخر، اكتشف في موقعها فخار ومصنوعات برونزية وعظام وأدوات منزلية خشبية وسلال وأقمشة، وقد دمرت في أواخر العصر البرونزي وهي أقدم مدينة اكتشفت حتي الآن، تعتبر أريحا البوابة الشرقية لفلسطين وترتبط بالضفة الشرقية بشبكة طرق معبدة وتتصل بطريق القدس وعمان، وتقع إلى الشمال من مدينة القدس، وتبعد عنها 38 كم، و70 كم عن مدينة الخليل في الجنوب.

خضعت (أريحا) لحكم الصليبيين بعد أن غزوا فلسطين، وأصبحت مركزاً للجيش الملكي الصليبي بقيادة ريموند الذي غادرها بجيشه بعد أن سمع بقدوم الأيوبيين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، حيث جعلوها جسراً لهم في فلسطين للاتصال بقواتهم وولاتهم في الشام.

ثُم أخذ نفسًا عميقًا واسترسل:

- ازدهرت (أريحا) في عهد الرومان ويظهر ذلك في آثار الأبنية التي شقوها فيها والتي تظهر على نهر القلط وفي هذا العهد صارت تصدر التمر، سميت بأريحا نسبة إلى (أريحا بن مالك بن أرنخشد بن سام بن نوح)، وهذا يدل على أن أصل التسمية سامي الأصل.

نظر إلينا بتمعن وهتف وقد رسم الاندهاش تعابير وجوهنا:

- لقد قمتُ بحفريات في مواقع أثرية في العالم العربي أهمها موقع خربة المفجر في منطقة (أريحا) حيث وجدت (قصر هشام) هذا الذي تجلسون فيه الآن، ونقوشه وزخارفه الثمينة غنية عن الوصف، وحفرياتي في (تل الغسيل) في سهل البقاع بـ(لبنان)، واكتشافي أيضًا لموقع (جميرا) في (دبي).

ثم قلب الصفحات التي كانت بين يديه وتوقف عند احداها وأشار للوح الذي كان موضوع بعناية أمام المنصة:

- هذا اللوح لا يُعد نصًا تأسيسيًا لتاريخ إنشاء القصر، إلا أن نسب القصر إلى (هشام)، لا يعني أنه سكنه، وقد طرأت تغييرات وتعديلات كثيرة على التصاميم والمخطوطات الأساسية في مراحل البناء، ما يدل على أن أعمال البناء ظلت مستمرة بعد وفاة (هشام) إلى أن دمرت المباني كلها بالزلزال الذي حدث في سنة 746م، وربما أن القصر والحمام يخصان (الوليد بن يزيد)، الذي تولى الخلافة بعد عمه (هشام) واتخذ القصر مقرًا شتويًا.

وأضاف:

- خلال إقامتي في (لبنان)، قمتُ بأبحاث حول الفينيقيين، وفي عام 1969م نشرت دائرة الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية كتابًا لي "الفن والعمارة في فلسطين القديمة" الذي كان مسحًا لتاريخ

فلسطين منذ القدم وحتى الفترة العثمانية وقد استنتجتُ فيه إلى وجود كيان فلسطيني ذي استمرارية على مر التاريخ وإن تغيرت لغة وعقيدة سكانه بفعل الظروف التاريخية المختلفة.

ثم قام بتقريب هاتفه من مكبر الصوت وقام بتشغيله، فسمعنا صوت تشويش رهيب، وقد بدا وكأنها نشرة أخبار ستذاع فقال المُذيع بصوته الجهوري:

- (الجيش الجزائري يقصف "تل أبيب" والمدن الإسرائيلية بالصواريخ، كما أن الدبابات الإماراتية تقتحم الحدود وتقصف إسرائيل من الجهة الشرقية، ومصر تفتح مَعبر رفح وتُدخِل جيوشها لنصرة أهالينا في "غزة".

"العراق" الآن يزحف بجيشه آتيًا على الأخضر واليابس والقوات السعودية تقوم بإنزال قواتها بـ "غزة" لِمُساندة الجيش المصري ضد "إسرائيل".

قد أسفرت الغارات حتى الآن مقتل مِئات الجنود الإسرائيليين وأسر عدد كبير منهم. ونزول اليهود للملاجئ وهرب "نتنياهو" عبر طائرة خاصة لأمريكا. مجلس الآمن الدولي يجتمع في جلسة طارئة مُطالبًا الدول العربية إيقاف هجومها على "إسرائيل". أمريكا أرسلت حاملات الطائرات لمساعدة "إسرائيل"، لكنّ البحرية المغربية اعترضتها وأغرقتها بالمحيط الأطلسي، وأغلقت الممر البحري لمضيق جبل طارق.

إلى هنا تنتهي نشرة اليوم، وإليكم أبرز العناوين...)

فأشار (ديمتري) إلينا بكلتا يديه بعد توقف حديث المُذيع الشيق والذي حرك القلوب من مكمنها بفرحة عارمة، وهتف صائحًا بكل غضب:

- ماذا سيحدث إذا حدث ذلك؟ ينصر أبناء العروبة بعضهم بعضا، متحدين يدا واحدة، يقضون على إسرائيل بضربة رجلٍ واحد.

وختم حديثة:

- نقف متحدين نصمُد، متفرقين نسقُط.

(4)
ادعاءات وأكاذيب

بعد ترجلنا من القصر كنت أريد بشدة أن أبقي، حتى ابقى مع (صُمود) لأطول فترة ممكنة، فوقنا أمام مدخل القصر نتشاور فيما قاله عالم الأثار (ديمتري) في هذا الاجتماع الشيق الذي جعلني متحفزًا للقتال دون أن أهاب أي أحد.

بغاتنا (مُنقذ) بسؤاله وهو ينظر صوب عالم الأثار الذي مازال يتحدث مع بعض عامة الشعب:

- معنى كل هذا أن الاحتلال يفعل كل تلك المشاحنات ويُلقى بكل قذائفه فقط، ولم يحدث مجازر من قبل هنا؟!

فنظر لـ (صُمود) التي أجابت دون انتظار رد أحد:

- بالفعل كانت هناك مجازر شتى، حتى إن لم تحدث مذ أعوام مديدة، لكنها حدثت بكثرة.

ثُم قالت:

- كمذبحة "دير ياسين" في قرية دير ياسين، التي تقع غربي القدس، على يد الجماعتين الصهيونيتين (أرجون، وشتيرن)، وراح ضحية هذه المذبحة أعداد كبيرة من السكان لهذه القرية من الأطفال، وكبار السن والنساء والشباب.

عدد من ذهب ضحية هذه المذبحة مختلف عليه، أذ تذكر المصادر العربية والفلسطينية أن ما بين 250 إلى 360 ضحية تم قتلها، بينما تذكر المصادر الغربية أن العدد لم يتجاوز 109 قتلى، وكانت مذبحة دير ياسين عاملًا مهمًا في الهجرة الفلسطينية إلى مناطق أُخرى من "فلسطين" والبلدان العربية المجاورة لما سببته المذبحة من حالة رعب

عند المدنيين، ولعلّها الشعرة التي قصمت ظهر البعير في إشعال الحرب العربية الإسرائيلية في عام 1948.

أضفت بكل حماس وأنا اريد الولوج إلى هذا الحديث الشيق:

- وهذه المجزرة غير اقتحام عصابات "الهاجناه"، في 1947، قرية بلدة الشيخ «يطلق عليها اليوم اسم تل جنان» ولاحقت المواطنين العزل، وقد أدت المذبحة إلى مصرع العديد من النساء والأطفال حيث بلغت حصيلة المذبحة نحو 600 شهيد وجدت جثث غالبيتهم داخل منازل القرية.

نظرت (صُمود) تجاهي بابتسامة:

- بالفعل كما حدث في 23 مايو 1948م هاجمت "كتيبة 33" التابعة للواء الكسندروني، قريةَ "طنطورة"، احتلت القرية بعد عدة ساعات من مقاومة أهالي البلدة لقوات الاحتلال الصهيوني، وفي ساعات الصباح الباكر كانت القرية كلها قد سقطت في يد جيش الاحتلال، وانهمك الجنود الإسرائيليون لعدة ساعات في مطاردة دموية شرسة لرجال بالغين بهدف قتلهم، في البداية أطلقوا النار عليهم في كل مكان صادفوهم فيه؛ في البيوت، في الساحات، وحتى في الشوارع، وبعد ذلك أخذوا يطلقون النار بصورة مركزة في مقبرة القرية.

وخلفت مذبحة الطنطورة أكثر من 90 قتيلًا دفنوا في حفرة كبيرة، وفي المقبرة التي دفنت فيها جثث القتلى من أهالي القرية في قبر جماعي، أقيمت لاحقًا ساحة لوقوف

السيارات كمرفق لشاطئ "دور" على البحر المتوسط جنوبي "حيفا".

استطردتُ وأنا ألتفت بكامل جسدي تجاه (صُمود) لتعلم بأنني لدي معلومات كثيرة عن هذا الأمر:

- وقامت وحدات من الجيش النظامي الإسرائيلي بتطويق قرية "قبيه" – كان عدد سكانها يوم المذبحة حوالي 200 شخص – بقوة قوامها حوالي 600 جندي، بعد قصف مدفعي مكثف استهدف مساكنها، وبعد ذلك اقتحمت قوات الاحتلال الصهيوني القرية وهي تطلق النار بشكل عشوائي، وبينما طاردت وحدة من المشاة السكان الفلسطينيين العزّل وأطلقت عليهم النار، عمدت وحدات أخرى إلى وضع شحنات متفجرة حول بعض المنازل فنسفتها فوق سكانها.

ورابط جنود الاحتلال خارج المنازل أثناء الإعداد لنسفها، وأطلقوا النار على كل من حاول الفرار من هذه البيوت المعدة للتفجير، وقد كانت حصيلة المجزرة تدمير 56 منزلًا ومسجد القرية ومدرستها وخزان المياه الذي يغذيها، كما استشهد فيها 67 شهيدًا من الرجال والنساء والأطفال، وجرح مئات آخرون، وكان قائد القوات الإسرائيلية التي نفذت تلك المذبحة أرييل شارون رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق.

اندهش (مُنقذ) من كل تلك الضربات القاسمة، ولم يتوقع كل ما حدث لتلك المدينة، فقال مُطأطِأً رأسه:

- لكن متي توقفت تلك المجازر بعد هذا الخراب الذي خلفته خلفها؟!

نظرت (صُمود) لكلينا بيأس كاد أن يُذيب قلبي بشدة:

- أعتقد أنها لم تنجو إلا بعد مذبحتي "القدس"، و "المسجد الأقصى، ففي مدينة "القدس" أمطرت قوات العدو الصهيوني، في يونيو 1967، المدينة وسكانها، بوابل من القصف المتواصل بالقنابل المحرقة، جوًّا وأرضًا، وبموجات من رصاص الرشاشات؛ مما أدى إلى استشهاد حوالي (300) من المدنيين.

ثُم تنهدت ببطء مخرجة زفيرًا طويلًا يُنبأ عن مدى صعوبة استيعاب هذا الأمر:

- وحدث في يوم الإثنين الموافق 8 أكتوبر 1990م وقبيل صلاة الظهر، حاول متطرفون يهود مما يُسمى بجماعة «أمناء جبل الهيكل» وضع حجر الأساس للهيكل الثالث المزعوم في ساحة الحرم القدسي الشريف، وهبّ أهالي القدس لمنع المتطرفين اليهود من تدنيس المسجد الأقصى؛ مما أدى إلى وقوع اشتباكات بين المتطرفين اليهود الذين يقودهم (جرشون سلمون) زعيم «أمناء جبل الهيكل» مع نحو خمسة آلاف فلسطيني قصدوا المسجد لأداء الصلاة فيه، وتدخل جنود حرس الحدود الإسرائيليون الموجودون بكثافة داخل الحرم القدسي، وأخذوا يطلقون النار على المصلين دون تمييز بين طفل وامرأة وشيخ؛ مما أدى إلى استشهاد أكثر من 21 شهيدًا، وجرح أكثر من 150 منهم،

كما اعتقل 270 شخصًا داخل وخارج الحرم القدسي الشريف.

لمحت دمعة تسقط من خدي (صُمود)، فلم أتمالك نفسي وقمت بوضع يدي على خديها لمسح تلك الدمعة التي أبت ألا تُذرف وأنا أنظر إليها بحنان وعجز عن ردع ما يحدث حتي لا تبكي تلك الحسناء هكذا، احمرة وجنتاها بِحُمرة قاتمة، وحتي تخرج من هذا الحرج قامت بنداء عالم الأثار الذي انتهى لِتوه من مُناقشة بعض العامة وأتى نحونا مُباشرةً، أوقفته (صُمود) في منتصف الطريق وقالت له شيئًا في أُذنه، فضحك بشدة، ثم قام بإمساك يدها وسحبها للعربة التي جاءت منذ قليل، ولم نُلاحظها، وقال لنا وتلك الابتسامة تختفي تدريجيًا من على ثغره:

- الآن إذا سَمحتم لنا بالذهاب فنحن على عجلةٍ من أمرنا.

تنهدت تنهيدة شعرت كأن قلبي يلتهبُ من هذا الوداع المرير، وقلت بحزن وأنا مُطأطأ الرأس:

- لكننا كُنا نُريد الاستمتاع بمعالم "فلسطين" الزاهية، والتي لم نرها قبلًا، لكننا لا نعلم كيف نذهب إليها.

تفكر (ديمتري) قليلًا وقال وقد رسم ابتسامته من جديد:

- لا مشكلة، ثُم نظر ل(صُمود) التي كانت علي وشك ركوب العربة:

- اذهبي أنتِ معهما الآن واجعليهم يفتخرون بتلك المدينة القُدسية.

فكبر حجم بؤبؤ عينيها وهي تقول بخجل:

- سمعًا وطاعة أستاذي.

*****

ونحن في طريقنا مُستقلين سيارة كانت (صُمود) تحتجزها في مدينة "غزة" بمنزلها، قامت بالتحدث كثيرًا عن "فلسطين" فباغتها بسؤالي وأنا جالس بجوارها في المقدمة:

- ما هو أفضل وقت لزيارة فلسطين؟!

ابتسمت لسؤالي هذا:

- من الممكن زيارة "فلسطين" في أي وقت خلال العام، ولكن أفضل وقت لزيارتها في فصل الربيع والصيف في الفترة التي نحن بها الآن، نظرًا لاعتدال الحرارة فيها، ولكن هناك بعض المناطق التي تتمتع بدفء في الشتاء، ولكن إذا كُنت من محبى الثلوج فيمكنك زيارتها في فصل الشتاء.

سمعنا (مُنقذ) وهو يتفوه لأول مرة بعد ركوبه معنا في السيارة:

- وهل تعرفين كل معالم هذه المدينة؟!

أجابت دون تَمهل لإنهاء سُؤاله:

- بالطبع ففلسطين أغنى بلدان المشرق العربي تاريخًا وحضارة لكثرة الأماكن السياحية الأثرية القديمة وتنوعها فيها، وقديمًا كانت تستقبل الجميع، ورحبت بالسياح من كل أنحاء العالم.

هدأت وتيرة حديثها مُضيفة:

- ورغم أنها تعاني اليوم من واقع مرير بسبب الاحتلال الصهيوني الذى قسّمها وشرد أهلها وهدم الكثير من معالمها، إلا أنها مازالت أهم الوجهات السياحية ليس في الشرق فحسب، وإنما في العالم أجمع فقد احتلت المرتبة الأولى في سباق الوجهات السياحية الأسرع نموًا، وذلك وفق تقرير منظمة السياحة العالمية للأمم المتحدة.

توقفت فجأة، نظرنا أمامنا فرأينا المسجد الأقصى وقبة الصخرة علي بُعد خطوات قلائل، فقالت وهي تعدل بعض شعيراتها التي تقازافتها الرياح:

- من أهم معالم فلسطين الدينية الذي يقع في مدينة القدس، وهناك بعض الأقاويل توضح أن تم بناء المسجد الأقصى بعد بناء الكعبة المشرفة ب 40 عامًا , ويرجع سبب تسميته بهذا الاسم بسبب بعدة عن المسجد الحرام.

واقتربنا أكثر منه وإذ به منطقة مُحاطة بِسورٍ مستطيل واقع في جنوب شرق مدينة القدس المسورة، وتقع في موقع القلب بالنسبة للمسجد الأقصى الشريف.

وللمسجد أربعة مآذن هي مئذنة باب المغاربة الواقعة الجنوب الغربي، مئذنة باب السلسلة الواقعة في الجهة الغربية قرب باب السلسلة، مئذنة باب الغوانمة الواقعة في الشمال الغربي، ومئذنة باب الأسباط الواقعة في الجهة الشمالية.

يتكون المسجد الأقصى من سبع مصليات أو مساجد معمدة مع عدة قاعات صغيرة إضافية من الجهة الغربية

والشرقية من الجزء الجنوبي من المسجد، ويوجد حوالي 40 نافذة من الزجاج الملون في المسجد.

وفي جنوبيّ المسجد في جهة القبلة مباشرةً هناك الجّامِعُ القبليّ، وهو أحد أهمّ معالم المسجد الأقصى المُبارك، المصلى القبلي من الداخل، وهو الجامع المسقوف الذي تعلوه قبّة رصاصية، ويُعتبر هذا الجامع المصلّى الرئيس الذي يخطب فيه الخطيب في صلاة الجمعة، كما أنّه يُعتبر المصلّى الرئيس للرجال داخل المسجد الأقصى حيث يقف الإمام، وحيث يوجد المحراب والمنبر الرئيسان.

ويتكوّن من رواق كبير في الوسط وثلاث أروقة في كل جانب. وللجامع قبّة مرتفعة داخلية مصنوعة من الخشب، تعلوها القبّة الرئيسة الخارجيّة والمُغطّاة بألواح الرصاص، وله إحدى عشر بابًا.

ويقع تحت الجامع القبلي مصلى الأقصى القديم، يُدخل إليه عَبر درج يقع قرب الرواق الأوسط في الجهة الشمالية للجامع القبلي، وهو عبارة عن ممر يتكون من رواقين باتجاه الجنوب، ويوجد عند المدخل الشمالي منه غرفة صغيرة، كما يوجد غرفة أكبر تقع عند بقايا الباب المزدوج عند المدخل الجنوبي للمصلّى والتي تستخدم للحرس، وهي تحتوي على محراب في مدخلها، ويوجد بئر عميق ومغلق الآن، ومن العناصر المعمارية المميزة فيه وجود قبّتان أمويتان مسطحتان تقومان فوق مدخله الجنوبي، وعندهما يوجد أعمدة حجرية ضخمة تشكل الأساس الذي تقوم عليه منطقة قبة الجامع القبلي.

وهناك مسجد قبة الصخرة بالطبع، وتعتبر قبّته إحدى أهم وأبرز المعالم المعمارية الإسلامي، وأقدم بناء إسلامي بقي محافظًا على شكله وزخرفته في الأغلب، وهي عبارة عن بناء مثمن الأضلاع له أربعة أبواب، وفي داخله تثمينه أخرى تقوم على دعامات وأعمدة أسطوانية، في داخلها دائرة تتوسطها "الصخرة المشرفة"، وترتفع هذه الصخرة نحو واحد ونصف مترًا عن أرضية البناء، وهي غير منتظمة الشكل، وتوجد مغارة تُسمّى "مغارة الأرواح" أسفل جزء منها تعلوها فتحة، وتعلو الصخرة في الوسط قبّة دائرة، مطلية من الخارج بألواح الذهب، يعلوها هلال، ويعتقد بعض الباحثين أن بناتها خططوا لجعلها قبة للمسجد الأقصى كاملًا.

يحتوي المسجد الأقصى عدة قباب جميلة تعد من أبرز معالمه وإحدى التحف الإسلامية الخالدة، وأجملها كما أنها تضفي عليه جوًا قدسيًا، خاصة درتها قبة الصخرة المشرفة الواقعة في قلب المسجد الأقصى المبارك، والمسجد الأقصى يحتوي على خمسة عشرة قبة.

وهناك أربع مآذن للمسجد، ويحتوي المسجد الأقصى على خمسة عشر باب منها ما هو مستعمل (مفتوح) في أيامنا هذه وعددها عشرة، والبقية مغلقة منذ زمن بعيد لأسباب عديدة، وتقع جميع الأبواب المفتوحة في الجهة الشمالية والغربية من المسجد، وهي في الوقت نفسه تقع ضمن أسوار المسجد الأقصى.

أبواب المسجد الأقصى تشترك جميعها في أنها أبواب خشبية مكونة من دفة أو دفتين، وتشتمل على خوخة "فتحة"

لتنظيم المرور استعملت لمرور المتأخرين بعد إغلاق الأبواب عند الغروب. وقد برع المسلمون في الأعمال الخشبية وتفننوا في زخرفتها وإظهار تفصيلاتها والعناية بدقائقها كالمزاليج والمفاتيح والمفاصل وغيرها.

يحتوي المسجد الأقصى على رواقان يمتدان من جهته الشمالية والغربية وهما الرواق الغربي، وهو ممر مسقوف يتكون من خمسة وخمسين عقدًا، ويمتد بطول الواجهة الغربية للمسجد الأقصى، والرواق الشمالي، هو ممر مسقوف بطول الواجهة الشمالية للمسجد الأقصى، ويتكون الرواق من عدة مدارس، ولم يتبق أي جزء منه.

ثُم انتقالنا مُباشرةً إلى كنيسة (مريم المجدلية) التي تقع في منطقة جبل الزيتون وتعد من أجمل الكنائس في "فلسطين"، وشيدت هذه الكنيسة في أواخر القرن التاسع عشر، ويحيط بها العديد من أشجار الزيتون الخضراء وتتميز بقبتها العالية التي تشبه قطعة كبيرة من الذهب والمنقوشات الموجودة على جدرانها من الداخل.

وقفنا أمامها وقالت (صُمود):

- تعتبر كنيسة القديسة مريم المجدلية من أجمل مواقع العبادة في الأراضي المقدسة، حيث تقع على منحدر جبل الزيتون في قلب حديقة الجثمانية و تطل على بلدة القدس القديمة، لقد تم بناء الكنيسة من قبل قيصر روسيا الإمبراطور (الإكسندر الثالث) تخليدًا لأمه الإمبراطورة (ماريا الإكسندروفنا) و قد تم تدشينها في العام 1888م في احتفال حضره الأمير (سيرجى الإكسندروفيتش) وزوجته الدوقة

(إليزابيث فيدوروفنا)، وينقل عن الحدث أن الدوقة (إليزابيث) ذهلت من جمال المكان ما جعلها إلى أن تقول بنوع من النبوءة : "آه ، لو كان من الممكن أن أدفن هنا بعد أن أموت!"

وقد حدت الرحلة إلى الأراضي المقدسة الدوقة إلى أن تعتنق المذهب الأرثوذكسي حيث بدأت علاقتها الخالدة مع الكنيسة، فقامت (إليزابيث) بإحضار إثنين من أشهر فناني روسيا في ذلك الوقت (س. إيفانوف وف. فيريشاجيون إلى فلسطين)، وتجسد إحدى روائع إيفانوف القديسة (مريم المجدلية) وهي تروي للإمبراطور الروماني (تيبيريوس) عن الحكم الظالم بحق المسيح وصلبه، وتحمل القديسة (مريم المجدلية) في يدها اليمنى بيضة حمراء تمثل إعادة البعث و الحياة الخالدة، على يمين اللوحة صندوق خشبي مرصع بمنحوتات خلابة للقديسين والشهداء الذين يحوي الصندوق رفاتهم المقدسة، ويعتقد بأن أحد هذه المنحوتات يعود إلى القديسة (مريم المجدلية).

وعلى يسار اللوحة توجد الأيقونة المعجزة للسيدة مريم العذراء والتي أحضرت إلى الكنيسة في العام 1930م، حيث كانت موجودة في إحدى كنائس حاضرة مطرانية إلياس في لبنان لعدة قرون، ولكن عندما أتت النيران على الكنيسة دفنت الأيقونة تحت الركام و تحول لونها إلى السواد، إلى أنه و بفعل معجزة، بدأت بالتحول إلى اللون الأبيض خلال رحلتها إلى القدس.

في شباط من العام 1905م ترملت الدوقة (إليزابيث) حيث تم اغتيال زوجها من قبل قاتل محترف، و بعد جريمة القتل أولت (إليزابيث) جل اهتمامها إلى عملها الديني حيث بنت دير الرحمة في موسكو و الذي ضم كنيسة و مستشفى و عيادة للمرضى الزائرين و مدرسة للفتيات اليتيمات، و حيث أمست (إليزابيث) الأم العظمى للدير و المعلمة للراهبات السبعة عشر، الذين وهبوا كل وقتهم لزيارة و رعاية المرضى و الفقراء و الأطفال المساكين. كما أنشأت (إليزابيث) مستشفى في القدس و شركات تقوم بمساعدة الحجاج الروس على تغطية تكاليف رحلاتهم للحج إلى القدس.

مع نشوب ثورة العام 1917م انتهت قصة العائلة الملكية في روسيا، و رحلة (إليزابيث) إلى الإعدام بدأت عندما تم اعتقالها في العام 1918م في اليوم الثالث بعد عيد الفصح حيث تم نقلها إلى خارج موسكو مع راهبة مخلصة تُسمى (بربارة)، و في عشية الخامس من تموز من العام 1918م تم إلقاء الدوقة (إليزابيث فيدوروفنا) مع آخرين من أعضاء العائلة المالكة و الراهبة (بربارة) إلى عمق منجم قديم مهجور ليتم قتلهم بالمتفجرات التي ألقيت من بعدهم، و قد روي أن فرقة الإعدام سمعت أصوات ترانيم ملائكية قادمة من عمق المنجم صادرة من حناجر الشهداء.

في العام 1921م تم نقل رفات (إليزابيث فيدوروفنا) والراهبة (بربارة) إلى القدس و وضعت في تابوت حجري تحت أقواس كنيسة القديسة (مريم المجدلية)، و بعد أكثر من خمسين عام على ذلك، في العام 1981م تم تطويبهن

كقديسات شهيدات، و تم نقل رفاتهن إلى الجزء الرئيسي من الكنيسة حيث يرقدن اليوم في أضرحة رخامية. هذا المعبد و الذي تعتليه خمس قباب ذهبية لا يزال إلى يومنا هذا يحتفظ بلقب أحد أجمل معابد القدس.

اقتربتُ بحذر من تلك اللوحة فتعثرت بصخرة لم اعلم من اين ظهرت فوقعت مستندًا على اللوحة وإثر هذا وقع الصندوق الخشبي المرصع بالمنحوتات الخلابة.. فسمعنا صوب وقع الصندوق صوت رخيم ظهر من العدم فانتبهنا للمتحدث فإذ به كهل طاعن في السن، يرتدي حُله بيضاء، وخُفان كبيران يقف على أرض ملساء، ولدية لحية كثيفة بيضاء تصل لمنتصف صدره، ويمتلك عينان كبيران بعض الشيء، يقف مستندًا على عصاه على أرض ملساء مصنوعة من الزجاج الأمهق داخل حجرة خشبية قديمة الطراز.

ذهلت من إثر هذا، هل ما زلت أحلم؟! فهذا الكهل الذي ظهر لي في حُلمي اللعين، كيف ذلك؟

هتفت (صُمود) بخجل:

- نعتذر سيدي على ما حدث، كنا سنصلح ما أفسدن...

قاطعها وكأن الأمر لا يهمه:

- لا عليكم.

ثُم ولج من تلك الحجرة بعد وضعه لقلنسوته لتحميه من حرارة الشمس وأمسك الصندوق الخشبي وقال بصوته الرخيم:

- تفضلوا معي بالداخل.

ثم ترجلنا مباشرة لهناك دون أن نعترض حتى على استضافته تلك، قمت مستندًا على (مُنقذ) ودلفنا لداخل الحجرة الخالية من كل شيء إلا من المكتب الموضوع في جانب الحجرة وأمامه بضع مقاعد خشبية سميكة.

أغلق الباب خلفنا وخلع قلنسوته تلك فبدت ثيابه الناصعة البياض والتي لم تحمل صليبًا واحدًا، فقال بعربية سيئة بعدما أجلسنا أمامه:

- أنا الراهب (ميشيل) أبلغ من العمر 85 عامًا، وتقاعدت في سن السبعين، وكنت أخدم كقسيس راهب في كنيسة (مريم المجدلية)، وبعد أن أكملت أيام خدمتي وتقاعدت لم أستطع أن أتوقف عن الخدمة التي قضيت عمرى فيها، فأنا أقف هنا ليس بصفة رسمية كقس راهب، ولكنى أقوم بعمل تطوعي بدون مسمى كَنَسِي، ولكنه عمل فردي قررت أن أقوم به.

ثم جلس أمامنا وأخذ يُطالع بعض الأوراق أو مخطوطات قديمة بعض الشيء، باغتهُ بسؤالٍ لم أستطع كبح فضولي نحوه:

- ما الذى تقوم به هنا وأنت من الأساس مُتقاعد عن العمل؟

أخذ نفسًا عميقًا ورسم ابتسامه علي ثغره مطمئنة ونظر لي:

- لقد حدث جدال مذ عام تقريبًا حول بعض الأسئلة التي لم يستطع أي راهب الإجابة عليها وبصفتي عالِم بِجُل الأمور

هنا فأتو بي لحل تلك المُعضلة، وأيضًا مهتم أن أحمل لهم المعلومة كاملة.

نظر (مُنقذ) تجاه الأوراق المتراصة بإهمال على المكتب وقال وهو يشير إليها:

- على ماذا تحتوي تلك المخطوطات؟

- حرصت أن أعمل شرحًا مكتوبًا لإجابات تلك الأسئلة التي حيرت أذهان علماء لفترات طويلة.

قالت (صُمود) بنفاد صبر:

- وما هي تلك الأسئلة المهمة التي يبحثون لها عن؟

قاطعها الراهب بصوتٍ خافض:

- ثلاث أسئِلة، هل تزوج المسيح بمريم المجدلية؟ وهل أنجب منها أولادا؟ وهل تعيش ذريته حتى هذا اليوم؟

قلت بعدما ذهلت من سماع ما قاله:

- وهل وجدت أجوبة شافية لها بعد؟!

ابتسم ابتسامة حتى بدت نواجده، ظهرت علي إثرها أسنانه الناصعة البياض كثيابه:

- بالفعل توصلت لشيء بعد بحثٍ مضني لمدة ستة أشهر تقريبًا، لكن كانت صدمة لجميع الرهبان هنا.

أصبحنا مشدوهين بعدما سمعنا تلك الكلمات، وبعد صمت دام لدقيقة قلت:

- أرجوك أخبرنا بأجوبتها؟

- سأسرد عليكم ما وجدته.

وشرع بالوقوف وأخذ يروح جيئة وذهابًا أمامنا، وقال بصوته الرخيم كأنه يسرد قصة لنا قبل النوم:

- في قديم الزمان خلال القرون الأولى للمسيحية لم يكن هناك اعتقاد بألوهية المسيح، ولكن كانت النظرة له أنه نبي عظيم وقائد فذ وبشر فان، وأن قرار ألوهيته اتخذ على يد البشر في القرون اللاحقة أثناء تأسيس الكنيسة نفسها بشكلها الذي عرفه العالم، وبما أن المسيح كان إنسانًا عاديًا في المقام الأول فقد أحب وتزوج (مريم المجدلية)، وهي نفس السيدة التي وصمتها الكنيسة في مراحل متأخرة أيضًا بأنها " زانية "!! هذا ما جاء في رواية أدبية للروائي الأمريكي (دان براون) بعنوان؛ " شفرة دافنشي "، نشرها سنة 2003م، وزعم براون على لسان بطل روايته أن المسيح أنجب من مريم المجدلية ذرية ذات دم مقدس: " أن أكبر سر في تاريخ الإنسانية جمعاء, لم يكن المسيح متزوجًا فحسب، بل كان أبًا أيضًا، كانت (مريم المجدلية) الوعاء المقدس، كانت الكأس الذي حمل سلالة يسوع المسيح الملكية، والرحم الذي حمل ورثة المسيحية، والكرمة التي أنتجت الثمرة المقدسة! ".

وكأنه كشف الأسرار الخفية للديانة المسيحية وحطمها ودمرها!! وراحوا يزعمون أن أسفار العهد الجديد هي كتب محرفة وأن الكتب الأبوكريفية هي الكتب الأصلية، غير المحرفة، وزعموا أن الذي كتبها هم رسل المسيح أنفسهم، وأن مجمع نيقية بعد أن قرر عقيدة ألوهية المسيح، هكذا زعموا، رفض هذه الكتب الأبوكريفية وحرمها ومنع تداولها،

فأهملت إلى أن عادت للظهور مرة أخرى في قرية الحمرة بنجع حمادي سنة 1945م، لتكشف حقيقة المسيحية كما كانت أيام المسيح وأيام تلاميذه!!

والغريب، بل والأعجب، فهذه الكتب الأبوكريفية والتي اكتشف معظمها في البهنسا ونجع حمادي، موجودة في متناول الدارسين الذين ترجموها إلى عدة لغات، وقدموا عنها مئات الدراسات والأبحاث، خاصة في الإنجليزية، كما تُرجمت أجزاء منها إلى العربية، ومع ذلك نرى أن كل من كتبوا عنها في العربية، ومعهم دان براون مؤلف رواية " شفرة دافنشي " نفسه، لم يقرئوها ولا نرى أثرًا لذلك في كتاباتهم!! بل ركزوا كل جهدهم على اتخاذها كوسيلة للهجوم على العقائد المسيحية، ولمحاولة إثبات صحة ما يزعمونه في نقدهم المتواصل وغير المتوقف لها!!

ثم أخذ نفسًا عميقًا واسترسل:

- وأصبح معي أدلة وبراهين علمية وكتابية وتاريخية ولاهوتية، معتمد، ليس على الكتب الدينية فقط، بل بالدرجة الأولى على الموسوعات العلمية المحايدة وعلى رأسها " Encyclopedia Britannica 2004 " وموسوعة الانترنت العالمية " wikipedia.org "؛ لإثبات بطلان هذه الادعاءات الملفقة، وأن كل ما زعمه الكاتب الروائي والذين هللوا لما كتبه، بعيد تمامًا عن الصحة والحقيقة.

ونقول مع السيد نفسه قوله الإلهي الخالد: " على هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها " (مت16 :18)، ونقول مع ما قاله أشعياء النبي بالروح

القدس: " كل آلة صورت ضدك لا تنجح وكل لسان يقوم عليك في القضاء تحكمين عليه " (اش54 :17).

رفعت يدي كتلميذ يستأذن من معلمه فأذن لي بالحديث:

- ما هو موضوع تلك الرواية وهدف نشرها تحديدًا؟!

أخذ الراهب (ميشيل) يُقلب بعض الأوراق في يده، وتوقف عند إحداها واستطرد:

- تعتبر مريم المجدلية من أكثر الشخصيات المسيحية التي روى الغرب عنها روايات وأساطير، بل وصارت هذه الأساطير مثل غيرها من الأساطير التي كانت تعج بها أوربا في العصور الوسطى، خاصة فيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر، قبل عصر التنوير والنهضة.. هذه الفترة التي انتشرت فيها الأساطير والخرافات، بل وتميزت بانتشار كم كبير من الكتب المزيفة والمنحولة، والتي كتب عنها علماء الغرب الذين تخصصوا في آداب العصور الوسطى، والتي كتب عنها كثيرًا الأستاذ (حسن عثمان) في مقدمة ترجمته لرائعة دانتي الشهيرة " الكوميديا الإلهية "، والتي عبرت بصورة قوية عن فكر هذه العصور وما سادها من أساطير ومنحولات.

وفي الفترة الأخيرة صدرت روايتان أدبيتان تنسجان الأساطير من جديد حول شخصية مريم المجدلية وهما، " الدم المقدس – الكأس المقدسة "، والتي نشرت سنة 1982م، ثم " شفرة دافنشي " التي نشرت سنة 2003م، والتي نحن بصددها الآن، والتي اعتمدت بشكل رئيسي على ما جاء في الرواية الأولى، بل وانتحلت منها الكثير، كما قال

أحد مؤلفي الرواية الأولى في حديث تليفزيوني!! وسنقوم بدراسة الثانية وتحليلها علميًا وكتابيًا وتاريخيًا ولاهوتيًا، مع مراجعة لأهم ما جاء في الأولى، " شفرة دافنشي "، والتي اعتمدت عليها الثانية. وما يهمنا هنا في هذا الموضع هو إثبات عدم صدق وحقيقة كل ما جاء في كليهما.

وما يعنينا هنا هو إيضاح أن بعض الكُتاب العرب الذين كتبوا عن هذه الرواية، كتبوا ما تصوروا وزعموا أنه حقائق تمس جوهر العقيدة المسيحية، وقد التقوا مع فكر الكاتب الأصلي في نقطتين؛ الأولى هي الزعم بأنه كان يوجد عشرات الكتب التي كتبها تلاميذ المسيح، وقد رفضتها الكنيسة وأبقت فقط على الأناجيل الأربعة، وبقية أسفار العهد الجديد القانونية؛ لأنها تؤيد وجهة نظرها في عقيدة لاهوت المسيح.. والثانية هي القول بأن المسيح كان مجرد نبي عظيم فقط وبشر فان وأنه ليس إلهًا، كما تؤمن بذلك المسيحية.. ومن هنا رأى كلاهما في أسطورة مريم المجدلية والادعاء بأن المسيح تزوج بها وأنجب منها نسلًا ما يبرر هذه المزاعم!!

ونشرت جريدة " الدستور " مقالين عن هذا الموضوع؛ الأول بعنوان: " الكتاب الذي أزعج العالم وقرأه 25 مليون شخص ب80 لغة "، والثاني، والذي حمل نفس عنوان الصفحة الأولى والرئيسية للجريدة وهو: " هل تزوج المسيح؟ وهل أنجب؟ وهل تعيش ذريته حتى اليوم؟ ".

ويقدم المقال الأول ملخصًا وافيًا للرواية، في حين يقدم الثاني بدرجة أكبر رؤية الكاتب نفسه من خلال حديثه عن

الرواية التي اعتبرها قنبلة في وجه الكنيسة الكاثوليكية، وأن كان ما يكتبه موجه للعقيدة المسيحية بصفة عامة.

وقبل الدخول في التعليق على الموضوع أقدم لكم المقالين كما هما، إلى جانب إضافة فقرات من الرواية نفسها، مع التركيز على الفصول من 58 إلى 60 التي لخص فيها الكاتب جوهر أفكاره عن المسيح والمسيحية والأسفار القانونية والكتب الأبوكريفية، حتى تكون الصورة واضحة تمامًا للقارئ.

قلب الصفحات وأضاف:

- المقال الأول: " الكتاب الذي أزعج العالم وقرأه 25 مليون شخص ب80 لغة ":

تلقى الفاتيكان هذا العام ضربه محسوسة، كما يسميها الإنجليز، وتمثلت هذه الضربة في صورة رواية من القطع المتوسطة تقارب الـ 500 صفحة، وتحمل اسم " شفرة دافنشي ". تلك الرواية التي قامت لها الدنيا ولم تقعد، ليس لأنها من كلاسيكيات الأدب، ولا لأهمية كاتبها الأمريكي (دان براون)، بل لأن هذه الرواية تتحدث في تفاصيل خاصة جدًا في الديانة المسيحية يعتبرها المسيحيون مسلمات بديهية لا يجوز المساس بها أو مناقشتها.

سنتناول ما ورد في هذه الرواية والجدل الذي سببته وسنحاول معًا فهم الصورة كاملة علنًا نحظى بإجابات للأسئلة التي لا تنتهي.

تبدأ الرواية بـ (جاك سونيير) مدير متحف اللوفر، وهو يجرى داخل المتحف هاربًا من شخص يحاول قتله، وهو ينجح في هذا بالفعل، إذ يطلق رصاصة تخترق معدة (جاك سونيير) ثم يتركه يصارع الموت، وكل ما أمامه هو 15 دقيقة لينقل السر قبل موته، أي سر؟

يحقق في القضية النقيب (بيزوفاش)، وهو شخصية مسطحة، يقرر بدوره الاستعانة ببطل الرواية (روبرت لانجدون)، أستاذ علم الرموز الدينية في جامعة هارفارد، والواقع أن هناك سببين لاستدعائه؛ أولهما: أنه كان على موعد مع القتيل، وثانيهما: وهو وضع جثة (سونيير) المذهل الذي عثروا عليه فيه عاريًا ممددًا بصورة عجيبة على نجمة خماسية رسمها على الأرض.. وبعد كثير من الاستنتاجات المعقدة والتي تساهم في حلها (صوفي نوفو) حفيدة (سونيير) والتي تعمل كخبيرة حل شفرات نفهم جميعًا أن (جاك سونيير) كان القائد السري الحالي لجماعة (سيون)، التي فقدت هذه الليلة أربعة من قادتها كلهم ماتوا قرر تصفية قادة جمعية (سيون) ليحصل منهم على السر الكأس المقدسة.

ومع أحداث الرواية تتضح التفاصيل أكثر وأكثر، أن جاك سونيير) يحمل فعلًا مفتاح الطريق إلى الكأس المقدسة، لكنه استعان بشفرات دافنشي العجيبة ليحميه وهى شفرات لا يقدر على حلها سوى (صوفي) و (روبرت لانجدون) مجتمعين وكلما انتقلنا من نقطة إلى نقطة وجدنا شفرات العبقري (دافنشي) تنتظرنا بغموضها وسخريتها الرهيبة، بعقولنا على لسان (لانجدون) نعرف بعض الأسرار الطريقة، ومنها ما يؤكد أن (دافنشي) كان عضوًا نشيطًا في جماعة

(سيون) وأنه كان من عبدة الإله الأنثى ويستخدم لوحة الموناليزا فائقة الشهرة لإثبات نظريته.. بداية من اسمها ذاته والذي هو مزيج خبيث لكلمتي " آمون " و " إيزيس "، أي المزج بين الإله الذكر والأنثى، والمساواة بينهما في الأهمية، على عكس ما تؤمن به بعض المعتقدات الكاثوليكية، التي تقلل من أهمية الأنثى وتتهمها أنها أصل كل البلاء.

لقد كان (دافنشي) عبقريًا، وكانت موهبته في الشفير لا حد لها، لهذا سخر موهبته لحماية أسرار جمعية (سيون)، ولهذا استعان بها قادة الجمعة من بعده ولهذا حملت الرواية هذا الاسم الغربي، لكن هذا ليس كل شيء دعنا نعود إلى التاريخ البعيد لنتعرف على جماعة (سيون) أكثر، فهذه الجمعية التي تأسست عام 1099 على يد (جودوفرادي بويون)، أول ملك للقدس اللاتينية، وكان الغرض منها حماية أسرار عائلة بويون ذاته، حتى سمع أعضاء هذه الجمعة بوجود وثائق سرية تحت أنقاض معبد هيروديت، المبنى بدوره على هيكل سليمان، فأنشئوا فرقة عسكرية للبحث عن هذه الوثائق، وأسموها باسم " فرسان الهيكل ".

استمر الحفر والبحث لتسع سنوات كاملة، ثم عثر فرسان الهيكل على الوثائق ليعودوا بها إلى أوروبا، لمنحهم البابا اينوسنت الثاني سلطة مطلقة وصلاحيات لا حد لها، حتى قرر البابا (كليمنت) التحالف مع ملك فرنسا (فيليب الرابع) للتخلص منهم، وفي يوم الثالث عشر من أكتوبر لعام 1307، تم اغتيال معظم أعضاء فرسان الهيكل، لكن السر بقى مع الأعضاء الذين نجوا بفضل السرية المطلقة التي كانت تغلفهم، وفقًا لأحداث الرواية يتمكن (لانجدون) و

(صوفي) من الحصول على مفتاح السر من خزانة (جاك سونيير) في البنك ثم يلجأن سويًا إلى الصديق (لانجدون) المؤرخ الديني (لاي تيبينج)، لنعرف هناك أن السر الذي كان (سونيير) يحميه هو وجميع أعضاء جماعة (سيون) على مر كل هذه السنوات، هو خريطة تقود إلى الكأس المقدسة. التي يبحث عنها الجميع وهى قبر مريم المجدلية ذاته.. ونتعرف أيضًا على معتقدات جمعية (سيون) والذين - وفقًا لأحداث الرواية - يقدمون لنا حقيقة المسيحية الحقيقية!

بالنسبة لأعضاء جمعية (سيون)، فإن المسيح كان بشرًا عاديًا، ولم يكن إلهًا كما يحلو للفاتيكان أن يروج، وأكبر دليل على بشريته هو أنه تزوج مريم المجدلية!!

ومرة أخرى نعود إلى دافنشي، وإلى ثانٍ أشهر لوحاته على الإطلاق وهى لوحة العشاء الأخير لنرى أن من يجلس جوار المسيح هي (مريم) بشعرها الأحمر وملابسها المتماثلة في ألوانها مع ملابس المسيح كدلالة على أهميتها.. ولأن هذه اللوحة غير كافيه، نعرف على لسان (تبينج)، كيف تحولت الأنثى على يد قسطنطين وأتباعه إلى رمز لكل الشرور، وهى حرب كان الغرض منها تحويل الوثنية الأنثوية إلى مسيحية ذكورية، بالتالي يستحيل معها تقبل فكرة أن يتزوج المسيح من (مريم المجدلية)، وبالتالي تتأكد صورة كونه إلهًا وليس مجرد بشر عادى.

تتواصل المفاجآت عبر أحداث الرواية، حتى نصل إلى المفاجأة الأخيرة، وهى أن للمسيح نسلًا يعيشون بيننا حتى الآن، وأن جمعية (سيون) تسعى للحفاظ على سرية هويتهم،

لمنع الفاتيكان من الوصول إليهم والتخلص منهم.. وتنتهي الرواية ولا ينتهي الجدل فكل التفاصيل التي وردت فيها يقول المؤلف أنها حقيقية، وأنها موثقه بمراجع لا تقبل الشك كما أن موقف الفاتيكان المتخاذل من الرواية مثير للشك فهي لم تطلب منع تداولها إلا بعد صدورها بعدة أشهر باعت فيها الرواية ما يقارب العشرة ملايين نسخة.

ثم أن السرية التي يحيط بها الفاتيكان نفسه، والتي هاجمها (دان براون) في روايته السابقة (ملائكة وشياطين) أصبحت تثير سخط البعض وشكوك البعض الأخر..
والعجيب هنا هو أن معظم ما قدمته الرواية نوقش من قبل في كتاب " الدم المقدس والكأس المقدسة "، الذي صدر عام 1982، لكن هذه المرة تغلف المفاجآت والأسرار بقالب بوليسي خصب ممتع، ليقدم ما فيه إلى جميع الأعمار في صورة ممتعة، وليست متخصصة.

جلس الراهب أخيرًا بعدما أتعبنا بسيره بهذه الطريقة وأخرج عدة وريقات أخرى من دُرج المكتب:

- المقال الثاني: " هل تزوج المسيح؟ وهل أنجب؟ وهل تعيش ذريته حتى اليوم؟ ":

لم يكن الروائي دان براون هو من أول أطلق هذه القنبلة في وجه الكنيسة الكاثوليكية بل ولم يكن ما كتبه هو الأعمق او الأشمل في هذا الموضوع الشائك.

ومع ذلك تمكنت رواية "شفرة دافنشي" بشهرتها المدوية ونجاحها منقطع النظير من توجيه ضربة قاسية للكنيسة الكاثوليكية وإصابتها بأذى لم تتمكن عشرات الكتب

والأبحاث الرصينة قبل ذلك من فعله.. والسبب أنها وصلت إلى الملايين في صورة بسيطة مشوقه مليئة بالحياة والحركة، وقدمت ما يشبه الحقيقة للملايين في أنحاء العالم في روايته التي تمزج الواقع بالخيالي والتاريخي بالشائعات، قدم (براون) القضية ببساطة مطلقة وبروية تختلف تمامًا عما يعتقد فيه الملايين من أتباع الكنيسة الكاثوليكية حول العالم، قال (براون) أنه خلال القرون الأولى المسيحية لم يكن هناك اعتقاد بألوهية المسيح، ولكن كانت النظرة له أنه نبي عظيم وقائد فذ وبشر فان، وان قرار ألوهية المسيح اتخذ على يد البشر في القرون اللاحقة، أثناء تأسيس الكنيسة نفسها بشكلها الذي عرفه العالم، وربما أن المسيح كان إنسانا عاديا في المقام الأول فقد أحب وتزوج (مريم المجدلية)، وهى نفسها السيدة التي وصمتها الكنيسة في مراحل متأخرة أيضًا أنها " زانية ". وقال (براون) أيضًا أن المسيح أنجب ذرية ذات دم مقدس عندما رحلت المجدلية إلى فرنسا بعد صلبه وقيامته وهناك أنجبت ابنتهما (ساره).

الفكرة المزلزلة التي قدمها (براون) في روايته لم يكن هو صاحبها الأول ولا الوحيد، بل على العكس فقد قام ببناء روايته والأفكار الواردة فيها على أعمال الآخرين؛ مثل كتاب " الكأس المقدسة، الدم المقدس " الصادر عام 1982، وكذلك بعض الأفكار المتواترة القديمة التي أكد الباحثون من خلالها أن الكنيسة الكاثوليكية قامة بأكبر خدعة في التاريخ عندما أزاحت المجدلية ودورها المحوري في المسيحية وألقت بها في غياهب النسيان بل وكللتها بالعار الأبدي لسبب بسيط وهو حاجة الكنيسة لإقناع العالم بألوهية المسيح، ولذلك

كان يجب حذف واستبعاد أي أناجيل أو شخصيات تعطى المسيح سماته البشرية العادية وعلى رأسها زواجه وإنجابه.

ولبحث هذه القضية الملتبسة، علينا أن نبحث أولًا في تاريخية وجود المجدلية وعلاقتها بالمسيح، ومدى المعلومات التي نعرفها عنها، والحقيقة أن معظم الدراسين يؤكدون وجود عدد كبير من الأناجيل كتبها أتباع أو حواريون المسيح، ورغم وجود هذا العدد الكبير من النصوص، ذات الأهمية التاريخية والقداسة، فإن الكنيسة اعتمدت أربعة فقط من هذه الأناجيل كتبها (متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا) تمثل فيها بينها ما اصطلح على تسميته " العهد الجديد "، والأعجب أن الإنجيل كما نعرفه اليوم تم جمعه على يد الإمبراطور الروماني الوثني (قسطنطين) العظيم الذي اعتنق المسيحية وهو على فراش الموت، ومنحها الاعتراف الرسمي في الإمبراطورية الرومانية، وفي الأيام الأولى لتشكيل المسيحية في صورتها الرسمية تم اقتراح فكرة المسيح ابن الرب والتصويت عليها بين أعضاء المجلس النيقاوي لتسود فكرة ألوهية المسيح وأن أتباعه لا يمكنهم التحرر من خطاياهم إلا عبر طريق وحيد يمر بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

في العهد الجديد أو الإنجيل الرسمي المعتمد لا توجد معلومات كثيرة عن المجدلية، ولكن في كل الأحوال ذكرت بالاسم اثنتي عشرة مرة، وكانت بين قلة قليلة من أتباع المسيح الذين شهدوا عملية صلبه، كما أنها الشخص الأول الذي ذهب إلى القبر الذي دفن فيه المسيح بعد صلبه، وشهدت قيامته من الموت، وكانت أول شخص تقع عليه عين

المسيح بعد القيامة.. وهذه المعلومات الرسمية المعتمدة من الكنيسة تظهر الدور المهم الذي لعبته هذه السيدة في المرحلة المبكرة للدعوة، وظهور الدين بغض النظر عن موضوع اقترابها الحميم من المسيح والذي يحيطه الجدل.

أما الصورة الأخرى للمجدلية التي يعرفها العالم، وأنها كانت العاهر التي أنقذها المسيح من الموت لتتوب على يديه وتتبعه حتى النهاية، فهي صورة متأخرة نسبيًا، يعود السبب الرئيس فيها للبابا جريجورى في القرن السادس الميلادي، حيث قام بالخلط بين ثلاث نساء مختلفات ذكرن في الأناجيل وحملن اسم (مريم)، ليؤكد أنهن جميعًا شخصًا واحدًا، هو (مريم المجدلية)، ويقول الخبراء أن رواية (جريجورى) سادت عمدًا بهدف تحطيم سمعة المجدلية ووصمها بعار الدعارة لقطع الطريق على أي حديث عن دور هذه السيدة في قيام المسيحية الأولى.

ما فعله البابا (جريجورى) من وصم المجدلية بالعهر لتلاحقها هذه التهم لمدة زادت على 14 قرنًا تالية، كان هو الخطوة الأولى الحاسمة لإنكار أي حديث عن زواج المسيح منها، وبالتالي إنكار وجود ذرية مقدسة من نسلها، وبالطبع فإذا كان هذا الزواج حقيقة فمن الوارد جدًا أن يكون قد أثمر عن أبناء.

المدهش أن الكنيسة الكاثوليكية نفسها، وبعد هذه الفترة الطويلة من الاتهامات للمجدلية، أصدرت قرارًا في عام 1996 أبطلت فيه تعريف البابا (جريجورى) للمجدلية كعاهرة، ولكن هذا التصويب المتأخر جدًا لم يُفلح على

الإطلاق في التأثير على الصورة التي انطبعت في أذهان رواد الكنيسة من أن (المجدلية) هي نفسها العاهرة التائبة المذكورة في الأناجيل.

العلاقة الحميمة والغامضة بين المجدلية والمسيح، لم تطرح على مائدة البحث أو تعود إلى الأضواء إلا منذ سنوات قليلة نسبيًا، والسبب الرئيسي لهذا التغير، هو ظهور مجموعات جديدة من النصوص الرسمية المعتمدة منذ قرون، فعندما وضع (قسطنطين) أُسُس المسيحية الرومانية، واعتمدت الأناجيل الأربعة الرسمية تم إهمال وإحراق باقي الكتب والأناجيل المتداولة، ولكن بعض هذه الأعمال أفلتت من المصير المحتوم، ليظهر في النصف الأخير من القرن العشرين ويعيد فتح كل الملفات المغلقة.

في عام 1945 عثر (محمد على السمان)، وهو فلاح مصري، على كنز أثري لم يتمكن من تقدير قيمته بطبيعة الحال، ولكن هذا الكشف أحدث زلزالًا بين الباحثين والخبراء، حيث وجد الرجل المصري اثنتين وخمسين وثيقة قديمة، مكتوبة بالقبطية والآرامية، في حقله، كانت عبارة عن مجموعات من الأناجيل القديمة التي لم تعتمدها الكنيسة الكاثوليكية على الإطلاق، وأطلق الخبراء عليها اسم الأناجيل الغنوصية «Gnostic Gospels»، نسبة إلى مجموعه مسيحية قديمة، كانت تنكر الطبيعة الإلهية للمسيح، وترى أن الوصول إلى معرفة الروح الإلهية الحقة أن يكون بمعرفة الإنسان لنفسه، وهو الأمر الذي يهدم فكر الكنيسة الكاثوليكية من الأساس، باعتبارها الطريق الوحيد لوصول الإنسان إلى الله.

عبر هذه الأناجيل المجهولة، أمكن للمرة الأولى، منذ قرون بعيده، الاستماع إلى أصوات لم تكن مسموعة من قبل، وهى أصوات (توماس، وفيليب، ومريم المجدلية)، التي قدمت في الأناجيل المنسوبة لها صورة مختلفة للسيد المسيح وعلاقته بأتباعه وحورايه، وعلى رأسهم المجدلية نفسها.. أحد هذه الأناجيل - التي ترفضها الكنيسة - وهو انجيل (فيليب) تحدث أكثر من غيره عن علاقة المسيح بالمجدلية، ويقول فيه بالنص: " ورفيقة المخلص هي (مريم المجدلية) أحبها أكثر من كل التلميذين واعتاد أن يقبلها من فمها.. وقد أثار هذا الأمر ضيق باقي التلميذين وعبروا عن استيائهم وقالوا له: لماذا تحبها أكثر منا؟ ".

بالطبع يكتسب هذا النص بالتحديد معنى واضح وأهمية استثنائية، عندما نعلم أن كلمة رفيقة باللغة الآرامية تعنى حرفيا الزوجة، أما الإنجيل المنسوب للمجدلية نفسها، والذي كان ضمن الوثائق التي وجدت، فقد عرض بصورة أوضح الخلاف بينها وبين بطرس، الذي يقال أنه الصخرة التي بنى عليه المسيح كنيسته، وفي هذا الإنجيل يقول (بطرس): " هل قام المخلص فعلا بالتحدث مع امرأة دون علمنا؟ وهل سينصرف عنا؟ وهل سنضطر جميعا للانصياع إلى أوامرها؟ هل فضلها علينا؟ وأجابه (ليفي): "(بطرس) لقد كنت دائما حاد الطباع، وأرى أنك الآن تعارضها وكأنك خصمها. إذا كان المخلص قد جعلها شخصية مهمة فمن أنت لترفضها؟ من المؤكد أن المخلص يعرفها حق المعرفة. لذلك فهوا يحبها أكثر منا ".

هذه النصوص تعرض بشكل واضح، وللمرة الأولى، الدور الكبير الذي كانت (المجدلية) تلعبه وسط التلميذين وتفضيل المسيح لها عن باقي أتباعه، وربما تثبت ملامح الغيرة من باقي الأتباع لإدراكهم أن المسيح يضعها في منزلة أعلى منهم، وأنها بالتالي مرشحة لخلافته بعد فترة صلب المسيح وقيامته.

رصد بعض المؤرخين والكتاب حياة المجدلية وكتبت (لين بينكت) في كتابها (مريم المجدلية) أن السيدة رحلت إلى فرنسا، التي كانت تسمى بلاد الغال وقتها، ولا يعرف الكثير عن فترة وجود المجدلية في فرنسا، وإن كانت الحكايات المتواترة هي أنها وضعت هناك ابنتها من المسيح، ولكن الحقائق المؤكدة تقول أنه بحلول القرن الثاني عشر والثالث العشر الميلادي - كما رصدت سوزان هيسكنز في مؤلفها حول المجدلية – قد زادت بشكل ملحوظ أعداد الحاج الذاهبين لزيارة ضريح (مريم المجدلية) في فيزالى بجنوب فرنسا، والمثير أن العديد من الرسائل البابوية من الفاتيكان، والتي أصدرها الباباوات لوشيوس الثالث وأوربان الثالث وكليمنت الثالث قد أكدت جميعها بشكل رسمي، أن جسد المجدلية مدفون بالفعل في فيزالى، إلا أن أحدًا منهم لم يفسر على الإطلاق كيف استقرت جثة المجدلية هناك إن لم تكن قد عاشت في فرنسا في المقام الأول.

الجدل الصاخب حول هذه القضية دفع محطة التليفزيون «ABC» الأمريكية الشهيرة لتقديم برنامج خاص حمل اسم المسيح، (مريم)، (دافنشي)، استضاف فيه الأب (ريتشارد ماكبرين)، أستاذ اللاهوت بجامعة نوتردام، الذي قال فيه أن

الكنيسة صورت على إنها عاهرة طول هذه السنوات؛ لأنها لم تحتمل فكرة أن التابع الرئيسي للمسيح كان امرأة، وأنها كانت صديقه مقربة على الأقل، وأكد (ماكبرين) أنه لو كان المسيح تزوج بالفعل فلا بد أن زوجته هي (مريم المجدلية) ولا أحد سواها، خاصة، أنها على العكس من أتباعه الذكور الذين انسحبوا من مشهد النهاية، بقيت بجواره في كل اللحظات، كما أنها تِبعًا للعهد الجديد، المعتمد رسميا من الكنيسة، كانت الشخص الذي رآه يقوم من الموت، ولذا فهي أهم شخصية ارتبطت بعلاقة مع المسيح، حتى إن لم تكن بينهما علاقة زواج، وقال الرجل: "أن الرفض القاطع للكنيسة لفكرة زواج المسيح مرجعها الأساسي نظرة الكنيسة الصارمة تجاه الجنس، وأنه لو ثبتت هذه الحقيقة فإن قرونا من أفكار الانحياز ضد العلاقات الحميمة سيتم تقويضها على الفور".

انتهت شهادة رجل اللاهوت، ولم تنته ثورة الكنيسة الكاثوليكية على هذه الأفكار، ولكنها في كل الأحوال وتحت أي ظرف من الظروف قضية العام الضخمة التي فجرتها رواية خيالية مثيرة وأصابت شظاياها اكبر مؤسسة دينية في العالم.

أخرج الراهب كتاب (شفرة دافنشي) من إحدى أدراج مكتبه، وتوقف فيه عند علامة كان وضعها قبلًا في الكتاب وقال:

- أقدم لكم بعض الفقرات من الرواية نفسها نلخص فيها فكر الكاتب دون تعليق منا:

" إن الكأس المقدسة هي امرأة، لقد قلت أن لديك صورة للمرأة التي ادعيت أنها هي الكأس المقدسة، المسيح بذات نفسه هو الذي أدعي ذلك، وهناك كانت نسخة من لوحة العشاء الأخير بطول ثمانية أقدام، معلقة علي الحائط لقد كانت هذه الصورة هي نفس الصورة التي كانت (صوفي) تنظر إليها بالضبط:

- ها هي!

اقتربت (صوفي) من اللوحة بتردد وأخذت تتفحص الأشكال الثلاثة عشر.. كان يسوع المسيح في الوسط وستة من أتباعه علي يساره وستة علي يمينه.. إنهم جميعًا رجال. قال (تيبينج):

- ماذا عن الشخص الذي يجلس في مكان الشرف علي يمين المسيح؟

دققت (صوفي) بالشخص الذي كان إلى يمين المسيح مباشرة.. وركزت نظرها عليه.. وعندما تفحصت وجه الشخص وجسده، أحست بموجة عارمة من الذهول تسري في جسدها.. كان ذلك الشخص ذا شعر أحمر كثيف ويدين ناعمتين مطويتين وصدر صغير.. لقد كان الشخص دون أي شك امرأة.

كانت المرأة الجالسة علي يمين المسيح صبية صغيرة في السن ويبدو عليها الورع وذات وجه يتسم بالرزانة والحشمة وشعر أحمر كثيف ويدين مطويتين بطمأنينة، هذه هي المرأة التي بإمكانها ببساطة قلب الكنيسة رأسًا علي عقب؟

سألت (صوفي):

- من هي هذه المرأة؟

أجابها (تيبينج):

- تلك يا عزيزتي هي (مريم المجدلية).

التفتت (صوفي):

- الزانية؟

أخذ تيبينج نفسًا قصيرًا، كما لو أن الكلمة جرحته في الصميم:

- لم تكن المجدلية كذلك قط. وتلك الفكرة الخاطئة هي الإرث الذي خلفته الحملة القذرة التي أطلقتها الكنيسة الأولي فقد كانت الكنيسة بحاجة لتشويه سمعة (مريم المجدلية) وذلك للتغطية على سرها الخطير وهو دورها ككأس مقدسة.

- دورها؟

أوضح (تيبينج):

- كما ذكرت فإن الكنيسة كانت بحاجة لإقناع العالم بأن النبي الفاني يسوع المسيح كان كائنًا إلهيًا. ولهذا فإن أي انجيل من الأناجيل كان يتضمن في طياته وصفًا لمظاهر إنسانية فانية من حياة المسيح، كان يجب حذفه من الإنجيل الذي جمع في عهد (قسطنطين)، لكن من سوء حظ المحررين الأوائل، كان هناك موضوع بشري مزعج يتكرر في كل الأناجيل، وهو موضوع (مريم المجدلية) ".

صمت لحظة:

- وبكلمات أصح، موضوع زواجها من يسوع المسيح.

نظرت (صوفي) إلى (لانجدون) ثم نظرت إلى (تيبينج) ثانية:

- عفوًا، ماذا قلت؟

قال (تيبينج):

- أن ذلك كله مذكور في السجلات التاريخية، لم يكن ذلك كلامي أنا، وكان دافنشي علي علم تام بهذه الحقيقة، ولوحة العشاء الأخير هي صرخة للعالم للفت نظرهم إلى أن يسوع والمجدلية كانا زوجين.

حدقت (صوفي) من جديد في اللوحة الجدارية.

أشار (تيبينج) إلى الشخصين اللذين كانا في وسط اللوحة الجدارية:

- لاحظي أن يسوع والمجدلية يلبسان ثيابًا متماثلة تمامًا لكن بألوان متعاكسة.

كانت (صوفي) تكاد لا تصدق عينيها. هذا صحيح، لقد كانت ثيابهما متعاكسة في اللون؛ فـ(يسوع) كان يرتدي ثوبًا أحمر وفوقه عباءة زرقاء في حين أن (مريم المجدلية) كانت ترتدي ثوبًا أزرق وفوقه حمراء، ين ويانج.

قال (تيبينج):

- والآن لننتقل إلى ما هو أكثر غرابة، لاحظي أن (يسوع) وعروسه يبدوان وكأنهما متصلان عند الورك، ثم

يبتعدان عن بعضهما في الطرف العلوي وكأنهما بهذه الوضيعة يرسمان شكلًا واضحًا إلا وهو الكأس.

رأت (صوفي) شكل «V» الواضح تمامًا في مركز اللوحة بالضبط، قبل حتى أن يمرر قليل كناية عن الكأس المقدسة، القدح رحم الأنثى.

قال (تيبينج):

- وأخيرًا إذا نظرت إلى المسيح والمجدلية باعتبارهما عناصر تركيبية لا علي أنهما شخصان، ستجدين أنهما يكونان شكلًا أخر أكثر وضوحًا.

صمت لحظة:

- وهو حرف من حروف رؤيته في اللوحة.

كانت الخطوط التي تشكل حرف «M» عملاقة دقيقة إلى حد لا يترك مجالًا للشك، وكانت ساطعة في مركز اللوحة بشكل يعمي الأبصار تصرخ بصوت عال لتلفت نظر المشاهد إليها.

سألها (تيبينج):

- ألا تعتقدين أنها شديدة الوضوح والتناسق لدرجة أنها لا يمكن أن تكون هناك بمحض الصدفة؟

لكن (صوفي) كانت مذهولة:

- لكن ما هو القصد وراء رسمها هنا؟

هز تيبينج كتفيه وأجابها:

- إذا سألت الباحثين الذين يقولون بنظرية المؤامرة فسيجيبونك بأن ذلك الحرف يرمز إلى كلمة ماتريمونيو – زواج – أو مريم المجدلية. ولكي أصدقك القول، لا أحد يعرف الإجابة علي ذلك السؤال بشكل أكيد. لكن الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي أن وجود حرف «M» بشكل مخفي في تلك اللوحة، لم يكن عن طريق الخطأ، هذا بالإضافة إلى أنه كانت هناك أعمال كثيرة جدًا ذات صلة بالكأس المقدسة احتوت علي حرف «M» بشكل مخفي سواء كان ذلك كعلامة مائية أو بشكل مخبأ تحت اللوحات أو كإشارات مبتكرة لا تظهر للناظر إلا إذا دقق فيها. إلا أن أوضح «M» بلا منازع هي تلك التي تزين مذبح كنيسة سيدة باريس في لندن، والتي صممت علي يد زعيم كبير سابق لأخوية سيون، وهو (جان كوكتو).

فكرت صوفي للحظات في المعلومات التي سمعتها لتوها:

- إنني اعترف أن حروف «M» المخفية تثير الفضول والدهشة، إلا أنه من غير المعقول أن يدعي أي أحد أن ذلك يعد دليلًا دامغًا على زواج يسوع بالمجدلية.

قال تيبينج وذهب نحو الطاولات المليئة بالكتب:

- لا نهائيًا، كما قلت لك سابقًا، أن زواج (يسوع) و (مريم المجدلية) هو جزء من حقيقة وسجلات تاريخية.

وأخذ ينبش في مجموعة الكتب التي كانت بين يديه:

- علاوة علي أن (يسوع) كرجل متزوج هو آمر منطقي أكثر من فكرتنا الإنجيلية التقليدية التي تقول أنه كان عازبًا

سألت صوفي:

- لماذا؟

قال (لانجدون) وقد استلم دفة الحديث عن (تيبينج) الذي كان يبحث عن كتاب يريده لـ(صوفي):

- لأن (يسوع) كان يهوديًا، وقد كان العرف الاجتماعي في ذلك العصر يحرم تمامًا على الرجل اليهودي أن يكون أعزبًا، كما أن الامتناع عن الزواج كان ذنبًا يعاقب عليه بحسب التقاليد اليهودية، وكان واجب الأب اليهودي أن يجد زوجة مناسبة لابنه، فلو كان المسيح أعزبًا، لكان ذلك قد ذكر في أحد الأناجيل وتم تفسير حالة عدم زواجه غير المألوفة على الإطلاق.

عثر (تيبينج) علي كتاب كبير وسحبه نحوه من فوق الطاولة. كانت هذه النسخة من الكتاب: الأناجيل الغنوصية، فتحه (تيبينج) بحماس, وانضم إليه (لانجدون) و (صوفي). لاحظت (صوفي) أن الكتاب كان يضم بين دفتيه صورًا بدت كأنها مقاطع مكبرة لوثائق قديمة اتضح أنها أوراق بردي ممزقة تحتوي علي نص مكتوب بخط اليد. لم تتمكن من التعرف علي اللغة القديمة، إلا أن الصفحات المقابلة حملت ترجمة مطبوعة لتلك النصوص.

قال تيبينج:

- هذه صورًا للفائف البردي التي عثر عليها في واحة نجع حمادي وفي البحر الميت، التي قد حدثتك عنها، أنها السجلات المسيحية الأولي، والتي لا تتوافق معلوماتها للأسف مع الأناجيل التي جمع منها انجيل (قسطنطين)."

قلب صفحات الكتاب حتى وصل إلى منتصفه ثم أشار إلى أحد المقاطع:

- أن انجيل (فيليب) هو دائمًا أفضل واحد نبدأ به.

قرأت (صوفي) المقطع الذي أشار إليه:

- ورفيقة المخلص هي (مريم المجدلية)، أحبها المسيح أكثر من كل التلميذين واعتاد أن يقبلها في معظم الأحيان من فمها. وقد تضايق باقي التلميذين من ذلك وعبروا عن استيائهم. وقالوا آه ," لماذا تحبها أكثر منا؟".

لقد فاجأت تلك الكلمات (صوفي) إلا أنها لم تكن تبدو مقنعة:

- أنها لم تأت علي ذكر الزواج نهائيًا.

قال (تيبينج) بالفرنسية ثم ابتسم مشيرًا إلى السطر الأول:

- بالعكس، إذا سألت أي عالم باللغة الآرامية فسيقول لك أن كلمة رفيقة في تلك الأيام كانت تعني حرفيًا الزوجة.

وافقه (لانجدون) علي ذلك بإيماءة من رأسه. قرأت (صوفي) السطر الأول مرة أخري:

- ورفيقة المخلص هي مريم المجدلية.

قلب (تيبينج) في الكتاب ثانيه وأشار إلى عدة مقاطع أخري دلت بوضوح علي أن (يسوع) و (المجدلية) كانا علي علاقة عاطفية، مما أثار دهشة (صوفي) الشديدة، وبينما أخذت تقرأ تلك المقاطع، عادت إلى ذاكرتها صورة قس غاضب طرق باب بيت جدها ذات يوم عندما كانت طالبة في المدرسة إلا أنني أود أن أشير إلى المقطع التالي، وهو مأخوذ من انجيل مريم المجدلية.

لم تكن (صوفي) علي علم بوجود انجيل بكلمات المجدلية، قرأت النص:

- وقال (بطرس): " هل قام المخلص فعلًا بالتحدث مع امرأة دون علمنا؟ هل سينصرف عنا وهل سنضطر جميعًا للانصياع لأوامرها؟ هل فضلها علينا؟".

وأجابه (ليفي): " (بطرس)، لقد كنت دائمًا حاد الطباع. وأري الآن أنك تعارضها وكأنك خصمها. إذا كان المخلص قد جعلها شخصًا مهمًاً، فمن أنت لترفضها؟ من المؤكد أن المخلص يعرفها حق المعرفة. لذلك هو يحبها أكثر منا ".

فسر لها (تيبينج):

- أن المرأة التي يتحدثان عنها هي مريم المجدلية. وبطرس يغار منها.

- لأن يسوع فضل مريم عليهم؟ ليس هذا فقط، بل إن الأمر صار أخطر من مجرد الإعجاب. وفي تلك الفترة حسب ما يذكر الإنجيل، يشعر (يسوع) بأنه سوف يتم القبض عليه وصلبه قريبًا، لذا فهو يقوم بإعطاء (مريم المجدلية)

تعليمات حول كيفية متابعة كنيسته بعد أن يموت. ونتيجة لذلك يعبر بطرس عن استيائه حول قيامه لامرأة تحتل البطولة، يمكنني القول إن (بطرس) كان متعصبًا للرجال.

كانت (صوفي) تحاول استيعاب ما قاله:

- هذا الذي تتحدث عنه هو القديس (بطرس)، الصخرة التي بني عليها كنيسته؟

- هو بذاته، إلا أن هناك خطأ بسيطًا، فبحسب هذه الأناجيل غير المحرفة، لم يكن بطرس هو التلميذ الذي أعطاه المسيح تعليمات تتضمن كيفية تأسيس الكنيسة المسيحية، بل كانت مريم المجدلية.

نظرت (صوفي) إليه بدهشة:

- أنت تقول أن الكنيسة المسيحية كانت ستقوم علي يد امرأة؟

تلك كانت الخطة، فـ(يسوع) كان أول نصير للمرأة، كان يريد لمستقبل كنيسته أن يكون بين يدي (مريم المجدلية)؟

قال (لانجدون) مشيرًا إلى لوحة العشاء الأخير:

- وكان (بطرس) يعارض هذا الأمر، ها هو (بطرس) هناك، يمكنك أن تري أن (دافنشي) كان علي علم بمشاعر (بطرس) حيال (مريم المجدلية).

مرة أخري ذهلت (صوفي) ولم تستطيع أن تنبس ببنت شفة. ففي اللوحة، كان (بطرس) ينحني بطريقة مخيفة نحو

(مريم المجدلية) واضعًا يده الشبيهة بالسيف أمام عنقها كما لو أنه يريد ذبحها. نفس الحركة المرعبة في لوحة سيدة الصخور!

قال (لانجدون)، وقد أشار الآن إلى المجموعة الكبيرة من التلميذين بالقرب من (بطرس):

- وهنا أيضًا، مخيف بعض الشيء، أليس كذلك؟

دققت (صوفي) في اللوحة أكثر فرأت يدًا تظهر من بين جماعة التلميذين:

- هل تحمل هذه اليد خنجرًا؟

- نعم، والأغرب من ذلك هو أنكِ إذا قمتِ بِعَدْ الأذرع ستجدين أن هذه اليد لا تعود إلى أي أحد على الإطلاق، إنها مفصولة عن الجسد، يد مجهولة.

بدأت (صوفي) تشعر بالارتباك:

- عفوًا، لكنني إلى الآن لم أفهم كيف يجعل كل ذلك (مريم المجدلية) هي الكأس المقدسة؟!

هتف تيبينج مرة أخرى:

- أها! هنا تكمن الإجابة علي سؤالك!

والتفت من جديد نحو الطاولة وسحب قائمة كبيرة ووضعها أمامها. كانت قائمة بسلسلة نسب طويلة، القليل من الناس علي علم أن (مريم المجدلية) كانت امرأة قوية أصلًا، إضافة إلى كونها الساعد الأيمن للمسيح.

استطاعت (صوفي) أن تري الآن عنوان شجرة العائلة.

قال تيبينج مشيرًا إلى قمة الشجرة:

- قبيلة بنيامين هنا (مريم المجدلية).

فوجئت (صوفي):

- كانت من عائلة بنيامين؟

قال تيبينج:

- نعم، كانت (مريم المجدلية) من سلالة ملكية.

- لكنني كنت اعتقد أن المجدلية كانت فقيرة ".

هز تيبينج رأسه نافيًا:

- لقد جعلت الكنيسة المجدلية تبدو كزانية وذلك ليمحو الدليل الذي يثبت أن عائلتها كانت ذات سلطة ونفوذ.

وجدت (صوفي) نفسها تعود لتنظر إلى (لانجدون) من جديد، الذي وافقها مرة أخرى بإيماءة من رأسه.

التفتت مرة ثانية إلى (تيبينج):

- لكن لماذا تهتم الكنيسة الأولي إذا ما كانت المجدلية تحمل دماء ملكية؟

ابتسم البريطاني:

- طفلتي العزيزة، لم تكن أصولها هي التي تهم الكنيسة بقدر زواجها من المسيح الذي كان بدوره يحمل دماء ملكية. حيث يخبرنا انجيل متي, كما تعرفين, أن يسوع كان من عائلة داود, وهو سليل الملك سليمان ملك اليهود، وبزواجه من عائلة بنيامين ذات النفوذ، يكون قد وحد بين سلالتين

ملكيتين بشكل يتم فيه خلق اتحاد سياسي قوى مع إمكانية المطالبة شرعًا بالعرش وإعادة سلالة الملوك كما كان الأمر في عهد (سليمان).

أحست (صوفي) أنه قد وصل أخيرًا إلى خلاصة الكلام.

بدأ (تيبينج) متحمسًا الآن:

- أن قصة الكأس هي قصة الدماء الملكية، فعندما تتحدث قصة الجريل عن الكأس الذي حمل دم المسيح تكون في الحقيقة تتحدث عن (مريم المجدلية) - الرحم التي حملت سلالة المسيح الملكية.

بدت الكلمات وكأنها ترددت في كافة أنحاء الغرفة قبل أن تعود إلى أُذُني (صوفي) ويستقر في عقلها وتستوعبه:

- (مريم المجدلية) حملت سلالة المسيح؟ لكن كيف يكون هذا؟

ارتسمت علي وجه (لانجدون) ابتسامة لطيفة - إلا إذا كان لهما ابن.

وقفت (صوفي) بذهول.

أكد تيبينج:

- لاحظي أكبر سر في تاريخ الإنسانية جمعاء، لم يكن المسيح متزوجًا فحسب، بل كان أبًا أيضًا، عزيزتي، كانت (مريم المجدلية) الوعاء المقدس، كانت القدح الذي حمل

سلالة (يسوع) المسيح الملكية، والرحم الذي حمل ورثة المسيحية، والكرمة التي أنتجت الثمرة المقدسة!

اقشعر بدن (صوفي):

- لكن كيف يمكن لسر بهذه الأهمية أن يبقي مخفياً طوال هذه السنوات؟

قال تيبينج:

- يا الهي! إنه أبعد ما يكون عن الكتمان! فسلالة المسيح الملكية هي أساس أهم أسطورة في التاريخ - أسطورة الكأس المقدسة. لقد رويت قصة المجدلية مرارًا وتكرارًا عبر القرون بكل أنواع وأشكال الرموز والاستعارات واللغات، أن قصتها في كل مكان إذا أردت أن تفتحي عينيك لتريها.

قالت صوفي:

- ماذا عن وثائق السان جريل؟ التي يفترض بأنها تحتوي علي دليل يثبت أنه كان للمسيح سلالة ملكية؟

- أنها تحتوي علي تلك الأدلة بالفعل.

- أذن أسطورة الكأس المقدسة بكاملها هي حول السلالة الملكية؟

قال تيبينج:

- هذا صحيح تمامًا، وكلمة "سان جريل" أتت من سان «San» وجريل «Grail» أي الكأس المقدسة « Sang Real».

عرفت (صوفي) الترجمة في الحال.

"سان جريل" كانت تعني حرفيًا الدم المقدس

"سان جريل" الدم المقدس، الكأس المقدسة، السلالة المقدسة.

كانت كلها مرتبطة ببعضها ارتباطًا وثيقًا.

الكأس المقدسة هي (مريم المجدلية)، أم السلالة لـ(يسوع) المسيح، شعرت (صوفي) بموجة جديدة من الضياع تسيطر عليها وهي تقف في صمت في قاعة الحفلات وتحدق بـ(روبرت) و (لانجدون)، وكلما زاد (روبرت) و (لانجدون) من الشرح والتفسير,:، كلما أصبحت هذه الأحجية غير متوقعة على الإطلاق.

قال تيبينج وهو يمشي بصعوبة نحو أحد رفوف الكتب:

- كما ترين عزيزتي فإن (ليوناردو دافنشي) ليس الوحيد الذي كان يحاول أن يخبر العالم عن حقيقة الكأس المقدسة. فقد تم تسجيل تاريخ السلالة الملكية لـ(يسوع) المسيح بالتفصيل الممل علي يد العديد من المؤرخين.

ومرر إصبعه علي رف يحتوي علي عشرات الكتب. أمالت (صوفي) رأسها وقرأت قائمة العناوين:

(كشف سر فرسان الهيكل، حراس سر هوية المسيح الحقيقة، المرأة التي تحمل جرة المرمر، (مريم المجدلية) والكأس المقدسة، الآلهة في الأناجيل، استعادة الأنثى المقدسة).

قال (تيبينج)، وهو يسحب كتابًا قديمًا ضخمًا ذا غلاف سميك من بين كومة الكتب وأعطاه لها، وكتب على غلافه " دم ملكي، كأس مقدسة ":

- وهنا المجلد الأكثر شهرة، الكتاب الرائع الأكثر مبيعاً في العالم.

نظرت (صوفي) إلى (تيبينج):

- الكتاب الأكثر مبيعًا؟ لم أسمع به في حياتي.

- لقد كنت صغيرة عندئذ. وقد أثار الكتاب ضجة لدي صدوره في الثمانينات، إذا أردت رأيي الشخصي، فقد بالغ مؤلفوه قليلًا في تحليلاتهم، لكن الفكرة الأساسية كانت صحيحة وبفضلهم تمت إحياء إثارة فكرة سلالة المسيح وطرحها على الملأ.

- كيف كان رد فعل الكنيسة حيال الكتاب؟

- السخط الشديد، بالطبع. لكن ذلك متوقعًا. ففي النهاية كان هذا الأمر سرًا حاولت الكنيسة بكل ما أوتيت من قوة أن تدفنه في القرن الرابع. هذا كان أحد أسباب الحملة العنيفة التي شنتها الكنيسة والتي كان هدفها جمع المعلومات حول هذا الموضوع ومن ثَم التخلص منها. فقد كان الخطر الذي تشكله (مريم المجدلية) على رجال الكنيسة الأولي، يمكن أن يكون خطرًا مدمرًا. حيث أنها لم تكن فقط المرأة التي أوكل إليها المسيح مهمة تأسيس الكنيسة، بل كانت تمتلك أيضًا الدليل المادي الذي يثبت أن الشخص الذي نصبته الكنيسة الحديثة إلهًا، كان في الواقع قد ترك من بعده سلالة من البشر

الفانين، وقامت الكنيسة بالمقابل ومن أجل أن تحصن نفسها ضد قوة المجدلية، بتشويه صورتها وإعلانها على أنها زانية، واخفت الدليل الذي يثبت زواجها من المسيح. وبذلك أسكتت أي ادعاءات تزعم أنه كان للمسيح سلالة من بعده وأنه كان نبيًا فانيًا."

ثُم أغلق الراهب (ميشيل) الكتاب ووضعه بروية علي المكتب وأضاف:

- هذه أهم فقرات الرواية وأن كان هناك الكثير الذي سأذكره في حينه.

واسترسل حديثه:

- المقال الأول والذي لخص فيه الكاتب الرواية بصورة وافية، والمقال الثاني والذي عبر فيه الكاتب عن جوهر فكر الرواية إلى جانب فكره الخاص، ثم الفقرات الجوهرية من الرواية نفسها.

وأن كنا هنا نلوم الجريدة وغيرها من الصحف والمواقع التي نشرت مثل هذا الموضوع في صحف ومواقع يقرأها شعب متدين بطبيعته، سواء المسلمين منه أو المسيحيين، وما قد يترتب على ذلك من مجادلات ومشاحنات، إلا أن الموضوع قد فُتح على مصراعيه بنشره في ثمانون لغة، ثم تمثيله في فيلم سينمائي يجعل مشاهدة موضوع الرواية متاح لأكثر من مئة مليون شخص، وبالتالي سيكون مدى الجدال المتوقع حوله كبير. ولم يعد يجدي الكلام في ذلك، وليس أمامنا إلا التعليق على هذا الكلام، وتحليل موضوع الرواية

وما جاء فيها من ادعاءات، وتوضيح مدى الحقيقة والكذب فيه، لتكون الصورة واضحة أمام الجميع.

هل روى حقائق أم ادعاءات وأكاذيب؟

جالت (صُمود) بعينيها في الراهب مشدوهة بما سمعته:

- لكن هل الاتهامات للكنيسة الكاثوليكية في عقائد لا تخص الكاثوليكية وحدها، بل تخص جميع الطوائف المسيحية من أرثوذكس وبروتستانت وإنجليكان؟!

فتنهد الراهب وهو يزفر بهدوء تام:

- نعم، بالفعل، هي تخص جميع الطوائف المسيحية فقد راح (براون) في تصويره للتاريخ وكأنه مجموعة من الألغاز، يمحور الكنيسة في دائرة الفاتيكان، ويصور الفاتيكان وكأنه خزانة للأسرار التي يغلفها الغموض وتخفي حقائق التاريخ وأسراره!! كما زعم أن كل الأديان تتكون من الأكاذيب الكثيرة والملفقة، ونسب لأشخاص ما لم يكن لهم، وبدلًا من أن يتحرى الحقائق راح يجرى وراء القصص والروايات والأساطير المنحولة والمزيفة وأدعى أنها حقائق دامغة!!

ثم تابع بهدوء تام:

- وما أقوله هذا ليس تجني، بل هو ما سأثبته حالًا بالبراهين الساطعة والأدلة الدامغة، أدبيًا وعلميًا وتاريخيًا وجغرافيًا ودينيًا، ولم أعتمد في دراستي هنا إلا على أدق المراجع والموسوعات العلمية وعلى رأسها: "
Encyclopedia Britannica 2004 "، و "

Encarta Encyclopedia Deluxe 2004 "، وأوسع موسوعة عالمية على الانترنت وهي: " en.wikipedia.org ".

شرع الراهب (ميشيل) يدفن رأسه ثانية في تلك اللفائف وانتقى منهم واحدة وروى لنا بصوته الرخيم الهادئ:

- أسطورة الكأس المقدسة والدم الملكي والنسل المزعوم:

تقول هذه الأسطورة، أسطورة الكأس المقدسة (Holy Grail)، أنها الكأس الذي استخدمها (يوسف الرامي) ليجمع فيها دم المسيح التي تساقط من جسده على الصليب. هذه الكأس كانت لها قوة إعجازية كبيرة، ثم حملها (الرامي) وذهب بها إلى بريطانيا، وهناك أسس سلالة من الحراس لحمايتها. وكان العثور على هذه الكأس هو هدف فرسان الدائرة المستديرة التي كونها الملك (آرثر) الذي حكم بريطانيا في نهاية القرن الخامس الميلادي وبداية السادس، والذي دارت حوله الأساطير الكثيرة.

وفي فرنسا دونت الأسطورة في شكل قصيدة غير كاملة ودخلت الأدب الأوربي لأول مرة عن طريق الكاتب الفرنسي(Chrétien de Troyes)، أدعى أنه أخذها من كتاب حقيقي أعطاه له رئيسة الكونت (Philip of Flanders). ثم ترجمت إلى بقية اللغات الأوربية التي أضافت إليها عناصر جديدة. ثم تم ربطها بأسطورة أخرى، هي أسطورة الكأس التي استخدمها الرب يسوع المسيح في العشاء الأخير (Holy Chalice)، وقالت أن (يوسف

الرامي) استخدم كأس العشاء الرباني في جمع دم المسيح من على الصليب، ثم أُلقي (يوسف) في السجن، وهناك زاره المسيح وكشف له أسرار هذه الكأس المقدسة، وبعد أن خرج من السجن أخذ أنسباءه وأتباعه الآخرين وسافر إلى الغرب، وهناك أسس سلالة حراس الكأس المقدسة.

وفي القرن التاسع عشر انتشرت هذه الأسطورة بصورة كبيرة وكتب عنها الكثيرون من الكتاب، وفي القرن العشرين تم تصويرها في كثير من الأفلام الروائية. وأخيرا صدرت في كتاب روائي باسم: " الدم المقدس، الكأس المقدسة " سنة 1982م. وفي هذا الكتاب قدم مؤلفوه الثلاثة الأسطورة بأسلوب تقديم الحدث التاريخي في صورة رموز وألغاز وأسرار، وحولوا دم المسيح إلى نسل للمسيح والكأس إلى رحم مريم المجدلية، الذي حمل نسل المسيح، دم المسيح. وزعموا أنه من المحتمل أن يكون المسيح قد ذهب بعد الصلب مع (مريم المجدلية) وأطفالهما، التي تخيلوا أنه يمكن أن يكون قد تزوجها، إلى ما يعرف الآن بجنوب فرنسا، وأسسوا هناك سلالة ملكية، هي «الميروفينجيان Merovingian's»، الذين حكموا المنطقة التي تعرف الآن بفرنسا وألمانيا من القرن الخامس الميلادي إلى القرن الثامن، وكان يشار إليهم أحيانا بالملوك ذوي الشعر الطويل.

وزعم الكُتّاب أنهم توصلوا من خلال بحثهم في أسطورة الكأس المقدسة في قصر رينيه بجنوب فرنسا، إلى وجود جمعية سرية تدعى " أخوية سيون " ترجع إلى زمن الحروب الصليبية، وزعموا أنها بدأت مع تكوين فرسان الهيكل، لحماية هذا النسل الملكي الذي قد ينتمي إلى المسيح

والمجدلية، أو على الأقل ينتمي لداود الملك والنبي ورئيس الكهنة (هارون). كما ادعوا أن الكنيسة الكاثوليكية حاولت قتل كل بقايا هذه السلالة وحراسها، وكذلك حراس الهيكل (هيكل سليمان)، لكي تستمر في سيطرتها من خلال تتابع التسليم الرسولي عن (بطرس) الرسول وليس (مريم المجدلية)، التي زعموا أن المسيح أراد أن يضعها على رأس الكنيسة بدلًا من (بطرس) الرسول!!

ولكن كُتّاب رواية " الدم المقدس، الكأس المقدسة " كانوا أكثر مصداقية وأمانة من مؤلف " شفرة دافنشي"، الذي انتحل أفكارهم وأضاف إليها في روايته، فقد اعترفوا بأن ما وضعوه في روايتهم ما هو إلا أساطير لا دليل على صحتها، أو أنها كاذبة، بل قال (ريتشارد) لأحد المؤلفين الثلاثة في حديث تليفزيوني: أنهم قدموا افتراضات وليس حقائق " ولكنهم لم يؤمنوا قط أنها حقيقة ".

ما وضعه مؤلفو رواية " الدم المقدس، الكأس المقدسة انتحله (دان براون) مؤلف "شفرة دافنشي" وأضاف إليه الكثير من أساطير أخرى إلى جانب أفكاره الخاصة. فقام مؤلفو الرواية الأولى باتهام (براون) بالانتحال على أساس أنه استخدم ما جاء في رواياتهم بِكثافة، وسجل هو ذلك في روايته، في الفصل 60، بقوله: " وهنا المجلد الأكثر شهرة كتب على غلافه: " الدم المقدس, الكأس المقدسة "، الكتاب الرائع الأكثر مبيعًا في العالم، وقد أثار الكتاب ضجة لدي صدوره في الثمانينات.

التقط الراهب نفسًا عميقًا ثم تابع:

- إذا أردتم رأيي الشخصي، فقد بالغ مؤلفوه قليلًا في تحليلاتهم، لكن الفكرة الأساسية كانت صحيحة وبفضلهم تم إحياء إثارة فكرة سلالة المسيح وطرحها على الملأ.

واستطرد ناظرًا للفافة أمامه:

- انتحل (براون) ما جاء في رواية " الدم المقدس، الكأس المقدسة "، وزعم أن الشخص الجالس على يمين المسيح في لوحة العشاء الأخير لـ(ليوناردو دافنشي)، والذي يفترض أنه القديس (يوحنا) الرسول، قام (ليوناردو دافنشي) برسمه، بشفرة متعمدة، على أنه (مريم المجدلية)، وزعم أنها كانت زوجة للمسيح وأنها كانت حامل منه، وقال أنه لم يرسم الكأس في اللوحة على افتراض أنه كان يعرف أن المجدلية هي نفسها الكأس المقدسة، حاملة دم المسيح، أي النسل الملكي!!

وزعم أنه أيد ذلك بوجود ما يشبه حرف «M» الذي رسم للموقع الجسماني لكل من المجدلية والرسول الذكر القديس (بطرس) الذي تنحي إليه المجدلية. وأن حرف «M» كما جاء في الرواية: " يرمز إلي كلمة ماتريمونيوم (Matrimonium) – زواج – أو مريم المجدلية ". وزعم أن غياب القديس (يوحنا)، مع وجود (يهوذا) واكتمال عدد التلاميذ الاثني عشر تُرك بدون تفسير. وزعم أن ملابس المسيح متبادلة مع ملابس المجدلية ومعكوسة الألوان دلالة على الاتحاد الكامل بينهما.

كما زعم أيضًا أن اقتراب كل من المسيح والمجدلية من الأسفل، عند الورك، يمثل حرف «V» الذي يرمز إلى

الكأس، رحم الأنثى، وزعم أن التعبير الفرنسي القديم للكأس المقدسة هو «San Greal» وأن ذلك تبادل لفظي مع «San real» والذي يعني " الدم الملكي.

وما زعمه الكاتب هنا أعترف من قبله مؤلفو رواية " الدم المقدس، الكأس المقدسة " أنه مجرد افتراضات وتخمينات لا يؤمنون بها على الإطلاق وأنها لا سند كتابي أو تاريخي أو ديني لها، فلا مثيل لها لا في الكتاب المقدس ولا في كتب آباء الكنيسة ولا في الكتب الأبوكريفية، بل هي مجموعة من الأساطير تشابكت معًا وصيغت بأسلوب وضع التاريخ في صورة ألغاز ورموز، وضعها كاتب لا يؤمن لا بالمسيحية ولا بالأديان، بل يرى أن الأديان مليئة بالأكاذيب، بل أن أسلوب التشفير المنسوب لـ(ليوناردو دافنشي) لا يوافق عليه معظم علماء الفن والمؤرخين. بل وكل ما قيل عن وجود صلة بين أخوية سيون أو فرسان الهيكل هو محض ادعاءات وأكاذيب.

وادعى أن من يدقق في اللوحة سيجد أن التلميذ الثالث على يسار المسيح مرسوم بشكل أقرب للأنثى مثل صورة القديس (يوحنا) التي يزعم الكاتب أنها للمجدلية، و...

قاطعه (مُنقذ) متسائلًا بلهفة:

- هل كان (دافنشي) يرمز لزوجة أخرى للمسيح أو لأحد التلاميذ؟!!

ضَحكَ الراهب (ميشيل) حتى بدت نواجذه:

- كنتُ سأقول هذا حالًا..

ثُم استرسل:

- هذا الأمر يكذبه علماء الفن الذين يقولون أن الرسامين في فترة (دافنشي) اعتادوا على رسم الشباب بهذا الشكل.. واللوحة هنا لا تصور العشاء الرباني، بل عشاء الفصح، والفارق بين عشاء الفصح والعشاء الرباني كما يزعمون هو أن يسوع المسيح تناول مع تلاميذه الفصح أولًا، وكان عشاء الفصح، حسب العادة في عصره، يتكون من خروف الفصح إلى جانب نوع الحساء (الطبيخ) المصنوع من البلح والتين والذي كانوا يضعونه في أطباق ويغمسون منه، مع وجود أربعة كؤوس يشرب فيها الجالسون الخمر على أربعة مراحل، مع التسابيح والصلوات والشكر، بينما كان العشاء يتكون من خبزة واحدة وكأس واحدة ترمزان إلى جسد المسيح ودمه.

وفيما هم يأكلون الفصح قال (يسوع) لتلاميذه: " الحق الحق أقول لكم أن واحدا منكم سيسلمني". فكان التلاميذ ينظرون بعضهم إلى بعض وهم محتارون في من قال عنه. وكان متكئا في حضن (يسوع) واحد من تلاميذه كان يسوع يحبه. فأومأ إليه (سمعان بطرس) أن يسأل من عسى أن يكون الذي قال عنه. فاتكأ ذاك على صدر (يسوع) وقال له: "يا سيد من هو". أجاب (يسوع): "هو ذاك الذي اغمس أنا اللقمة وأعطيه". فغمس اللقمة وأعطاها لـ(يهوذا سمعان الإسخريوطي)(يو13 :21-26).

نظر الراهب إلينا وهو يشير بسبابته إلى اللفافة:

- نلاحظ هنا أنه في العشاء كان أمامهم أطباق يغمسون منها، وهذا هو عشاء الفصح. وبعد أن خرج (يهوذا) يتكلم الكتاب عن العشاء فيقول: " وفيما هم يأكلون أخذ (يسوع) خبزا وبارك وكسر وأعطاهم وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي. ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فشربوا منها كلهم. وقال لهم هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا " (مت26 :26-28)، ويصور عادة بمائدة تحوي كأس واحدة وخبزة واحدة.

وبكل ذهول العالم الذي ارتسم على وجه (صُمود) قالت:

- معنى ذلك أن لوحة (دافنشي) أسمها العشاء الأخير وليس العشاء الرباني؟!

أجاب (مُنقذ) هذه المرة:

- هناك فرق كبير بين هذا وذاك، فقد رسم (دافنشي) لوحة للعشاء الأخير، أي الفصح الأخير للمسيح والذي كان يتكون من طبيخ التين والبلح وأربعة كؤوس للخمر، وليس العشاء الذي تكون من كأس واحد وخبزة واحدة. ومن هنا لم يرسم الكأس وكان عليه أن يرسم أربعة كؤوس، ولكن لأنه لم يكن لها دور في الفصح من جهة موضوع دم المسيح، ولا يمكن أن نفترض هنا أنه تعمد عدم رسم الكؤوس الأربعة؛ لأنه رمز بذلك لشيء ما!!

قلت متهكمًا لما قاله:

- فما الذي كانت تشير إليه أربعة كؤوس تُملأ بالخمر الذي لا صلة له بدم المسيح، والذي بنيت الأسطورة عليه؟!!

أشار الراهب بيده للسماء وأردف:

- في الصورة التي ظهرت فيها يد القديس (بطرس) في الهواء، والتي يُزعم أنها تبدو بحركة تشبه التهديد بالذبح تعبيرا من الفنان لرؤيته الصراع بين (بطرس) و (المجدلية)!! ولكن ما عبر عنه الفنان هنا هو إشارة إلى تحول القديس (بطرس) ليسأل القديس (يوحنا) عن شخص الخائن، فأصبعه يتجه إلى المسيح وليس لـ (يوحنا)، المزعوم أنها (المجدلية).

انتقى الراهب (ميشيل) لفافة أخرى وقرأ منها:

- "مملكتي ليست من هذا العالم" قال الكاتب أن المسيح من نسل داود الملكي وأنه وريث عرش داود بمعني دنيوي حرفي، كما زعم أن (المجدلية) من سبط (بنيامين) ومن سلالة ملكية.. وهذا يدل على جهل الكاتب بالكتاب المقدس حيث لم يكن هناك سلالة ملكية من سبط (بنيامين) في إسرائيل على الإطلاق، فقد كان أول ملك على إسرائيل هو (شاول البنياميني)، والذي رفضه يسوع بسبب خطاياه، ولم يخرج من نسله أي ملك بعد ذلك بل صارت الملكية فقط في بيت (داود) النبي والملك إلى أن جاء المسيح من نسله.

وقد كذب المؤرخون الزعم بأنها من سبط (بنيامين)، بل كانت من مجدل والتي كانت تقع في شمال إسرائيل في حين أن قبائل بنيامين استقرت جنوبًا. كما كان القديس (بولس) من

سبط (بنيامين) ومع ذلك لم يشر بالمرة إلى (المجدلية) ولا إلى موطنها.

كما يزعم الكاتب أن فكرة الزواج المزعوم للمسيح والمجدلية تخلق اتحاد ملكي سياسي يطالب بعرش إسرائيل، فيقول: " أن (يسوع) كان من عائلة (داوود)، وهو سليل الملك (سليمان) - ملك اليهود - وبزواجه من عائلة (بنيامين) ذات النفوذ يكون قد وحد بين سلالتين ملكيتين بشكل يتم فيه خلق اتحاد سياسي قوى مع إمكانية المطالبة شرعًا بالعرش وإعادة سلالة الملوك كما كان الأمر في عهد سليمان ".

فنحى الراهب اللفافة جانبًا، وانتصب واقفًا وقال في زهو:

- وهذا يعني أنه لو طهرت هذه السلالة المزعومة ستملك على إسرائيل، وبالتالي تسود إسرائيل على العالم كله، بحسب ما يتوقع اليهود في مسيحهم المنتظر، وهذه فكرة صهيونية مرفوضة مسيحيًا وعربيًا وإسلاميًا. كما أكد (يسوع) المسيح نفسه في الإنجيل القانوني الموحى به، بأوجهه الأربعة، أنه ليس ملكًاً أرضيًا، وأن مملكته ليست من هذا العالم (يو18 :36).

والكتب الأبوكريفية تصور المسيح كابن الله الوحيد المولود (المنبثق) من الآب، الإله السامي غير المرئي وغير المدرك، وأنه كائن روحاني نوراني، وليس له جسد مادي بل ظهر كشبح وخيال. كما وصفت رسالته بأنها خلاص الروح، وليس الجسد، بل خلاص الروح من الجسد الشرير الذي وضعها فيه إله هذا العالم، وذلك بالمعرفة، معرفة الإنسان

لذاته ومعرفته للإله السامي عن طريق الابن، المسيح. وهذا ينفي فكرة أن يحكم المسيح أو أن تكون له سلالة ملكية تحكم حكماً دنيوياً.

التقط نفسًا عميقًا وتابع بنفس وتيرته:

- وكان الشاهد علي كل هذا هو الجدار القابع في كنيسة "النوتردام" جنوب المذبح.

فعقدت حاجبي وقلت متهكمًا:

- جدار يحتوي شاهد على كل هذا.. كيف؟!

طفت ابتسامة خفيفة على ثغر الراهب وقال:

- لأن عمر الجدار يرجع إلى القرن الثاني عشر، واستمرت زخرفة الجدار حوالى 25 عاما، حيث تم الانتهاء منها في الجيل الرابع عشر.

تساءل (مُنقذ) في دهشة:

- ما الذى يحتويه هذا الجدار؟

- هذا الجدار يحتوي على قصة حياة المسيح بعد مماته فى صور، ويعتبر هذا الفن فريدا من نوعه بالنسبة للقرون الوسطي، وقام الفنان (جان رافى) الذى انفرد بها، حيث رسم أربعون يومًا بدءا من عيد الفصح «الذى يحتفل بها اليهود إلى اليوم» إلى عيد الصعود، وقد ركز على ظهور المسيح.

تسألت (صُمود):

- حدثنا عنه أكثر؟

قال الراهب (ميشيل):

- هناك عدة لوحات عديدة، اللوحة الأولى تجسد ظهور المسيح لـ(مريم المجدلية) «من السيدات اللاتي تبعن المسيح» وتظهر الأجواء والتوقيت، حيث ظهر لها المسيح وفق ما ورد بالأناجيل عند بزوغ فجر اليوم الثالث بعد صلب المسيح، فقد جاءت أولًا (مريم المجدلية) إلى القبر ومعها العطور لتطيب جسد المسيح.

وكما يذكر الإنجيل وجدت القبر فارغًا، وكان هناك رجل يقف بجانب القبر اعتقدت أنه البستاني، وسألته: هل تعلم أين وضعوا جسد المسيح؟ وبعد أن تحدثت معه وناداها باسمها «يا مريم» أدركت أنه المسيح.

ويظهر في اللوحة الثانية ثلاث سيدات، وهنا جسد الفنان ظهور المسيح الثاني للسيدات، حيث أتت ثلاث سيدات إلى قبر المسيح صباح القيامة وقد شاهدن المسيح وتعرفن عليه من آثار المسامير التي في يده، وهذا الظهور الثاني..

و أضاف:

- في هذه اللوحة الثالثة رسم الفنان ظهورين معًا، واللذان كانا لتلميذي المسيح (بطرس ويوحنا)، فكان الظهور الأول لـ(بطرس) وحده فى مغارة جبلية وهو ما يظهر في شمال اللوحة، والظهور الثاني كان لـ(بطرس ويوحنا) معًا، وفيها ترون (يوحنا) على بُعد، بينما المسيح يطرح سؤالًا على (بطرس) ثلاث مرات متتالية «أتحبني؟»، وهو ما كتبه القديس (يوحنا) في إنجيله، وكان هذا السؤال تاريخيًا ومغيرًا فى حياة الرسول (بطرس) والذى استشهد مع مسيحيين آخرين وذلك بالموت معلقًا على الصليب ورأسه لأسفل.

التقط نفسًا بتوتر وأكمل:

- في اللوحة الرابعة هناك شخصان. إذا نظرتم إلى الجهة الشمالية من اللوحة سترون تلميذين من تلاميذ المسيح قلقين من جراء موت سيدهما، وخلال عودتهما إلى قريتهما والتي تدعى «عماوس» التي تقع على بعد خمسة عشر كيلو مترًا من القدس، ينضم إليهم ثالث وهو المسيح، وفى البداية اعتبره التلميذين رجلًا تقيًا، وطلبا من المسيح فى نهاية رحلتهم أن يشاركهما وجبة العشاء، وعندما جلس معهما ليأكل قام كعادته بالصلاة ثم وذع، ومن هنا علمنا أنه المسيح.

وبعد كل تلك المعلومات الغائرة، القيمة، والساحقة لمن يتجرأ على تدنيس الأديان بكلامه وخزعبلاته، شكرنا الراهب (ميشيل) كثيرًا على تلك المعلومات التي من المؤكد مازالت دفينة، ولم يتعرف أحد عليها غيرنا، وتركناه وولجنا من الغرفة الخشبية، وقبل أن ندلف للعربة أصبحت كالممسوس عندما نظرت خلفي جهة الغرفة تحديدًا ولم أجد لها أي أثر ولا للراهب الذي فاض علينا بمعلومات ثمينة فكدت أخبر (صُمود) و (مُنقذ) بالأمر لولا تذكرت كلامه في حُلمي العجيب عندما قال: «أنت تسير في مسارات ملتوية، ومتفرقة، ومشتتة لعقلك؛ فكن على سجيتك واتبَع قلبك فهو دليلك لسلوك الطريق المستقيم، فهو يعلم ما لا تشعر به».

(٥)
طيباريوس

ثُم انتقالنا بعد ذلك إلى "حدائق البهائيين" واستطردت (صُمود) حديثها وهي تلوح بكلتا يديها لنا:

- هي الحدائق التي تعتبر أماكن مقدسة عند أتباع الديانة البهائية، توجد هذه الحدائق في ثلاث مناطق رئيسية: عكا وما حولها، حيفا، ومناطق قرب بغداد في العراق. كما يمكن أن توجد في دور العبادة البهائية.

ويقع في أعلاها ضريح الباب في حيفا، والتي يمكن أن تسمى بحدائق حيفا المعلقة، هي حدائق تقع حول ضريح الباب على جبل الكرمل في شمال فلسطين، تعتبر هذه الحدائق رمزاً من رموز حيفا المعاصرة وأحد أهم الأماكن السياحية في فلسطين.

بناها الإيراني (فريبرز صهبا)، الذي بدأ بالعمل بالحدائق عام 1987م. تأخذ الحدائق مساحة كيلومتر طوليًا على سفح جبل الكرمل وتغطي مئتا ألف متر مربع من الجبل، وتمتلك الحدائق لمسات فارسية كالتي توجد في شيراز في إيران وفي كشمير.

وهي من أجمل المعالم في حيفا، وتمتد لمئات الهكتارات، تحيط بالمركز العالمي للديانة البهائية، والذي يضم ذلك المبنى الشامخ ذو القبة الذهبية، الذي يسمى مقام الباب- قبة عباس - وهو أحد المبشرين بالبهائية، الذي قُتل عام 1850م وتم نقل رفاته إلى حيفا، وفيه مقام لضريحين (عبد البهاء) ابن (بهاء الله)، و "حضرة الباب" المبشر بقدوم (بهاء الله)، وهو أقدس شخصية بهائية وضريحه في حدائق البهجة في عكا.

جعل البهائيون من قبة عباس لوحة فنية متكاملة، ويأتي إليها نصف مليون من الزائرين سنويّاً، فحيفا تعتبر المقر العالمي للبهائية، وفيها أيضًا مؤسسات البهائية العالمية (بيت العدل الأعلى، ومقام عبد البهاء وابن بهاء الله)، ومن خلال هذه الحدائق الرائعة التي تطل على منطقة الكرمل بأكمله – توجت مدينة حيفا بلقب "عروس جبل الكرمل" وأدرجتها منظمة اليونسكو الدولية للتربية والثقافة والعلوم، في قائمة التراث العالمي في هذه المنظمة نظرًا لما يعنيه هذا الموقع بالنسبة للإيمان الديني.

وانتقلنا أخيرًا إلى ينابيع «طبريا» التي تقع في شمال غرب "فلسطين" وتعد من اقدم الينابيع التي استكشفت في «فلسطين» فيرجع تاريخ استكشافها الى الرومانيين، حيث عرفوا أهمية تلك الينابيع وأقاموا بجانبها العديد من الحمامات الكبريتية، وما زلت تتواجد هذه الحمامات حتى الآن، وتتميز مياه تلك الينابيع بارتفاع درجة حرارتها وملوحتها، ويأتي إليها العديد من السياح بهدف العلاج من بعض الأمراض.

باغتنا (مُنقذ) بقوله وهو يتحرك كما كانت تفعل (صُمود) منذ قليل:

- وهي بحيرة عذبة المياه تقع بين منطقة الجليل في فلسطين التاريخية (إسرائيل حاليًا) وهضبة الجولان في سوريا، على الجزء الشمالي من مسار نهر الأردن، تنحدر من قمة جبل الشيخ الثلجية البيضاء، المياه الغزيرة لتشكل مجموعة من الينابيع التي تتجمع بدورها لتكون نهر الأردن،

البحيرة والمنخفض حولها هما جزء من الشق السوري الأفريقي.

واسم البحيرة بالعربية يشير (طيباريوس) قائد جيش روماني طبريا إذ كانت أكبر بلد يقع على سواحل البحيرة (بحيرة طبرية)، يرد هذا الاسم بالعبرية أو بالآرامية في موارد يهودية مثل الميشناه والتلمود، وتم تسمية مدينة طبريا، عند تأسيسها سنة عشرون ميلاديًا على الساحل الجنوبي الغربي من البحيرة، نسبة إلى الإمبراطور الروماني (طيباريوس قيصر الأول)، أما بالعبرية الحديثة فتسمى البحيرة "كينيرت" إذ كان الاسم الوارد في التوراة (أي العهد القديم): سفر العدد (أصحاح 34) وسفر يشوع (أصحاح 13)، في النسخ اليونانية واللاتينية للعهد الجديد تُذكر البحيرة باسم "بحيرة الجليل" فهو الاسم الشائع اليوم في اللغة الإنكليزية (Sea of Galilee).

وبوقوع مستوى سطح البحيرة على عمق 213 متر تحت سطح البحر فإنها تعتبر أخفض بحيرة مياه حلوة في العالم وثاني أخفض مسطح مائي في العالم بعد البحر الميت.

تكون بحيرة طبريا مصدر مياه الشرب الرئيسي لإسرائيل، في 1964م انتهى بناء مسيل المياه الذي ينقل مياه البحيرة إلى جميع أنحاء إسرائيل، بعد حرب "يوم كيبور" في 1967م ربطت شركة المياه الإسرائيلية "ميكوروت" بعض المدن إلى مسيل المياه ولكنها تقطع توفير المياه إليها في بعض الأحيان.

مع أن الحدود الدولية التي تم رسمها في 1923م تبعد 10 أمتار من الشاطئ الشمالي الشرقي للبحيرة، إلا أن الاتفاقية منحت سوريا الحق في استغلال بحيرة طبريا في مجالي الملاحة والصيد، وفي1967م انتهت السيطرة السورية على هذا الجزء من بحيرة طبريا إذ فقدت سوريا مساحة كبيرة من مرتفعات الجولان شرقي البحيرة في الحرب مع إسرائيل، في المفاوضات السلمية التي عُقدت في الولايات المتحدة أواخر عام 1999م وأوائل عام 2000م أصرت سوريا على انسحاب إسرائيل من مرتفعات الجولان إلى خطوط الرابع من يونيو 1967م، الموقف الإسرائيلي هو أن الحدود الدولية من 1923م هو خارج الخلاف بشأن الجولان وترفض إمكانية الانسحاب إلى خط غربي هذه الحدود.

وذكر الرسول (محمد) قصة الدجال ذات غداة "فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال " ما شأنكم ؟ " قلنا : يا رسول الله ! ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال: " غير الدجال أخوفني عليكم. إن يخرج، وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج، ولست فيكم، فأمرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط. عينه طائفة، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالا، يا عباد الله ! فاثبتوا " قلنا : يا رسول الله ! وما لبثه في الأرض ؟ قال " أربعون يوما. يوم كسنة، ويوم كشهر. ويوم كجمعة. وسائر أيامه

كأيامكم " قلنا : يا رسول الله ! فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال " لا. اقدروا له قدره " قلنا : يا رسول الله ! وما إسراعه في الأرض ؟ قال " كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم، أطول ما كانت ذرا، وأسبغه ضروعا، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم، فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك. فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا. فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه، يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد. فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى : إني قد أخرجت عبادا لي، لا يدان لأحد بقتالهم. فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية. فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه، مرة، ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم. فيرغب نبي الله

عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرك، وردي بركتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها. ويبارك في الرسل. حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم. فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم. ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة ".

وفي رواية : وزاد بعد قوله " - لقد كان بهذه، مرة، ماء - ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل القدس، فيقولون : لقد قتلنا من في الأرض، هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دما "، وفي رواية ابن حجر " فإني قد أنزلت عبادا لي، لا يدي لأحد بقتالهم"

نظرت (صُمود) إليه باندهاش ممزوج بفرحة عارمة:

- أنت تعلم أشياء كثيرة عنها إذًا؟

قال (مُنقذ) وهو يفتخر بما فعله:

- بالفعل أعلم هذا واعلم الكثير، لكن الوقت قد أزف وحان وقت الرحيل الآن.

ثُم نظر نحو الأُفق مُشيرًا تجاه الشمس التي قاربت على الغروب، وقال مُوجهًا كلامه نحوي:

- هيا نذهب الآن حتى تلحق القطار قبل فواته.

تجمدت في مكاني وأنا أنظر إليه باستغراب مقيت، ففهم ما ارنو إليه دون أن أتنفس ببنت شفة، فقال وهو يحاول إخفاء ضحكة علي ثغرة:

- سنعود ثانيةً يا صديقي وسنتقابل من جديد لا تقلق.

نظرتُ لـ(صُمود) التي شعرت حينها أنها فهمت ما أريده فقالت مُباشرةً:

- أنا أسكن هنا في تلك المدينة العريقة "غزة"، ولا مشكلة في أن تكونوا ضيوفًا لي حتي الصباح.

شهقت بسعادة وكدت وأنا أصُافحها أن أمزجُ يدي بيدها لتصبح يدًا واحدة فهي قد احتلت كل كياني، أصبحت أهيم على وجهي من سَكرتي بِحُبها.

(٦)
روح الإنسانية

جلسنا جميعًا في منتصف الصالة نحتسي بعض الشاي، فباغتتنا (صُمود) بصوتها الحزين:

- نحن نرى الموت بأم أعيننا كل ثانية، ونشعر بأن الضربة القادمة ستكون فوقنا مباشرةً، فقد كنا إحدى عشر فردًا فقط في هذا المنزل، منهم أربع أطفال صغار- أكبرهم سنًا يبلغ عشر سنوات وأصغرهم يبلغ من العمر أسبوع واحد- نتجمع دائمًا في غرفة واحدة بالمنزل طوال الليل خوفًا من أن نستشهد متفرقين إذا تم قصفنا الاحتلال الإسرائيلي.

ثُم تقول وقد بدأ الدمع يترقرق على وجنتاها:

- كُنا ننتظر ضوء النهار مثلنا مثل الكثير من العائلات المجاورة، حتى نخرج من غرف منازلنا متفقدين ما حدث حولنا كما نُطمئن على بعضنا البعض بعد ليلة دامية من قصف الاحتلال الإسرائيلي لنا، رأينا فيها الموت بكل مكان وفي كل لحظة ونحن ننظر.

وتساءلت (صُمود) بتعجب مما حدث وهي تنظر إلينا:

- تخيل أنك جالس في بيتك في منتصف الليل، وتتجهز أنت وأطفالك لتناموا؛ ليبدأ الضرب والقصف في كل مكان، وبعد ذلك تسمع صوت الانفجار المرعب والمخيف، الأطفال تصرخ وتبكي بحرقة وأنت تحاول تهديهم وتهدئتهم وسط هذا القصف الذي يشتعل فوق الرؤوس في كل مكان، بجوار المنزل أو في الشارع، وتتشهد عند كل ضربة لأنك لا تعلم أين ستسقط الضربة القادمة، والمنزل يهتز اهتزازات عنيفة مع كل ضربة والنوافذ تتحطم.

وتستطرد بأسى بعدما مسحت دموعها المُنهمرة بأكمامها:

- بكاء وصراخ وقهر من الظلم، هذا ما حدث لي بعد رؤيتي لصورة طفلة شهيدة توفيت وهي تحمل "شيكل" عيديتها في أيديها، مما أثار وجع في قلوبي وصدمة في نفسي وقتها لا يمكن نسيانها، وعندما رأيت طفل يبحث عما تبقى من ألعابه بعد هدم منزله لم استطع التحمل، ويوهمون الأطفال هنا بأن ما يسمعونه مجرد ألعاب نارية للعيد؛ لأن عقلهم لن يستوعب ما يجرى حولهم من عدوان المحتل الإسرائيلي.

ثُم وكأنها تذكرت شيئًا ما فارتشفت بعض الشاي:

- أصعب الليالي التي مرت عليّ كانت ليلة الجمعة، وبالتحديد في تمام الساعة الثانية عشر منتصف الليل، فكانت ليلة كارثية موشحة بالموت وعبارة عن كتلة من الرعب والدمار، حيث لم يكن بيننا وبين الموت إلا لحظات معدودة وكنت نتوقع أن تكون الضربة التالية تستهدفني أنا وعائلتي وتعلونا الانفجارات في كل مكان من كل حدب وصوب، تقع تارة بجوار المنزل وأخرى في الشارع المقابل، ووسط ألسنة النار التي تتطاير في كل مكان والمنزل يهتز اهتزازًا رهيبًا.

توشح بوجهها جهة النافذة وهي تترقب القمر الذي يستمع إلينا في صمت:

- في الدقيقة الواحدة أكثر من خمس غارات تحدث، ومع قوة الضربات وقربها ومع كل انفجار كانت ألسنتنا تنطق بالشهادة دون وعي منا بسبب الخوف الذي يعترينا

وسط صراخ الأطفال الذين لم نستطع تهدئتهم، ووسط خوف هيستيري وبيوت تسقط فوق رؤوس ساكنيها، ولا يمكننا الخروج ولا الحركة ونبحث عن مكان آمن بين جدران المنزل لنختبئ فيه في حال أنه أصبح عرضة للقصف والانهيار في أي ثانية وسط دقائق مميتة مرت وكأنها جحيم لا رحمة فيها محفوفة بالدعوات أن تمضي سريعة وتنتهى أصوات ومشاهد مهولة ومخيفة قد لا أتمكن من وصف بشاعتها.

نظرت إلينا ومقلتيها مليئة بالدموع التي تلمع في ضوء القمر:

- أهل الحي الذي أنا فيه اختبئوا في منازلهم وبعضهم أختبئ في المستشفى طمعًا في الأمان إلا أن توقف القصف وبدأ صوت سيارات الإسعاف من كل مكان للبحث تحت الأنقاض، ونحمد الله أنه لم يكن هنالك شهداء في مدينتها بعد تلك الليلة، لكن الرعب كفيل بكل شيء وأنه كتبت لهم حياة جديدة بعد موت كان أقرب لأن يكون حتمي، بقينا مستيقظين نفزع مع كل صوت منتظرين الصباح أن يحل ونتفقد أنفسنا بعد هذا الوقت المرير.

واختتمت قصتها:

- الحمد الله من قبل ومن بعد، ورسالتي الأخيرة التي أُريد إيصالها لكل العالم، نحن نتعرض للموت في كل لحظة والدمار مخيف جدًا، وكل ما يحدث فداءً للقدس والأقصى.

لكن طريقتها في سردها وملامح وجهها الحزين مسّت شغاف قلبي خاصة حين شاهدت عينيها تتألقان بدموع حبيسة

تجاهد كي لا تتحرر وتنحدر من محبسها وتسقط على وجنتيها، فشعرت بغصة وألم وكأن مشاعرها قد انتقلت لي فجأة.

سمعنا فجأة قصف عشوائي من قبل الاحتلال الإسرائيلي على المنازل وخارجها فاهتز البيت اهتزازات كبيرة كدت أفقد وعيي من شدته، فحتمًا لم أري مثله من قبل .

قمنا مسرعين متجهين نحو قبو المنزل الذي هو المكان الوحيد الذي يقبع أسفل الأرض وبعد أن دلفنا للداخل وأغلقنا بابه بعناية سمعنا القصف قد ضرب المنزل بأكمله فوضعنا أيدينا على رؤوسنا خوفًا من أن يقع أي شيء علينا، وبعد ساعات متتالية من القصف توقف فجأة وبدا كل شيء يعود لسكونه المعتاد، نِمتُ في مكاني حتى شعرت بيد (مُنقذ) وهو يهزني للاستيقاظ، فوجدت (صُمود) تحاول فتح باب القبو فلم تُفلح، فقمت وحاولنا ثلاثتنا حتي استطعنا ازاحة الصخرة التي كانت فوقة، فشهقنا جميعًا بفزع في نفس الوقت عندما رأينا السماء فوقنا مباشرةً، فلقد دُمر المنزل تدميرا ولم يتبقى منه سوى حطام فقط.

ترجلنا منه مندهشين ونحن ننظر حولنا نرى الخراب الذي حل علينا فوجدنا كل شيء اصبح أنقاض حتي الحيوانات تنفر من رؤيتها هكذا فقمنا بتشكيل درع بشريّ لحماية المدنيّين، فركبنا سيارات الإسعاف لمنع الطائرات والمدفعيّة الإسرائيلية من استهدافنا أثناء تجوالنا لإسعاف المصابين.

لم نلذْ بالفرار كما نصحتنا قنصلياتنا؛ لأننا مدركون أنّ إسهامنا من خلال وجودنا كدروع بشرية في سيارات الإسعاف يمكن أنْ يكون حاسمًا في إنقاذ الأرواح، فنحن أرواحًا تطالب بالعدالة، ولن نذهب إلى أيّ مكان لأننا نؤمن بأنّ وجودنا ضروري لتقديم رواية شاهد عيان للجرائم التي تُقترف بحقّ سكانٍ مدنيّين مجرّدين من السّلاح ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة.

وكان لتقاريرنا الذي نشرناه وقعٌ مؤثرٌ في القرّاء عبر إيصال صوت الضحيّة دون أيّ "فلترة". فخرج الآلاف في مظاهرات في شوارع إيطاليا وأوروبا رافعين عبارة "حافظوا على إنسانيتكم" كشعار لحثّ الجميع على التّضامن مع مأساة الشعب الفلسطيني، واستنكاراً للمجازر التي ارتكبتها إسرائيل خلال تلك الحرب.

وقد لاحظنا في زيارتنا للمشفى الرئيس في المدينة، عدم وجود أيّ "إرهابي" بين الجرحى الذين ينتظرون دورهم للمعالجة أو بين الجثث التي تعجّ بها ردهات المشفى.

كما رأينا أيضًا جثث التلاميذ ملْقاةً في الشارع حيث أصيبت مدرستهم الابتدائية القريبة من مركز الشرطة الرئيس، وهو الذي استهدفته الغارةُ الأولى، فيما قالت مصادر الجيش الإسرائيلي وردّدت وسائلُ الإعلام الغربيّة أن ما يحدث هي هجمات تستهدف فقط أوْكار حماس الإرهابيّة بدقّةٍ تشبه دقّةَ العمليّة الجراحية.

تميَّزت اليوم الثالث لعملية القصف برائحة الفوسفور التي غطّت سحائب منه القطاع وصار مألوفاً لدى الغزّاويّين

طيلة تلك الحرب. كما تميّز هذا اليوم بالتركيز على استهداف المشافي والمراكز الطبيّة ومستودعات الأدوية. وقد تزايد عددُ الضّحايا المدنيّين من قتلى وجرحى باطّرادٍ بعد استهداف أحد المساجد وتضرّر أبنيةٍ قريبة منه، وكان يوجد هنالك بشر هم سكّان "غزّة" ينتظرون مَن يرفع الصوت في الخارج استنكارًا للمجزرة القائمة. في هذه الأثناء، يغادر أحد القوارب التابعة لحركة غزّة الحرّة ميناء لارنكا في قبرص محمّلاً بكميّاتٍ من الأدوية وعلى متنه عددٌ من المتضامنين الدوليّين.

وحوّلت إسرائيل المستشفيات والمشارح إلى مصانع للملائكة تنتج ملائكة عبر خطّ إنتاج بنسبة دون توقّف. قصفت المرفأ وسُوّيت مرافقه بالأرض، وتأثّرت الضّواحي المحيطة به بفعل القصف، ولوحظ أنّ القتل قد وحّد الفلسطينيّين وعادت الألفة بين مناصري التنظيمات المتصارعة في "غزّة".

تزايدت أعداد الجُثث المُبعثرة أشلاؤها، ولم يستطع ذوُو الضّحايا تمييز أقربائهم، ورغم ذلك لا يزال الموقف الدولي صامّاً آذانه عن سماع صرخات الاستغاثة من "فلسطين".

لم يعد المرء قادرًا على تمييز شوارع "غزّة"، فهو حين يمشي بين الأنقاض لا يعرف إنْ كان ما يمرّ به منزلًا أمْ مشفى أم مسجدًا، فقد اختفت معالم الأمكنة وكأنّ المرء يشهد زلزالًا ضرب المنطقة، في هذا الوقت أعلن أعضاء حركة التضامن الدولية في مؤتمر صحفي عقدوه في "غزّة"، وكان رسالة بعثوا بها إلى السلطات الإسرائيلية على الهواء

مباشرةً، أنهم سيركبون سيّارات الإسعاف آملين أنّ وجودهم فيها كدوليّين يمكن أن يكون رادعًا ولو بسيطًا لاستهدافها.

بينما كُنت أكتب تقريري الثاني ، كانت الدبّابات الإسرائيلية تدخل القطاع، ومع استمرار القصف الجوّي والبحري كان الفلسطينيون يَتوقون لوجود مَن يحقّق لهم العدالة، وبينما هم يتمنّون ذلك ظهرت صور الرئيس الأميركي (باراك أوباما) وهو يلعب الغولف على شاشات كلّ القنوات الفضائية العربية ،في مشهدٍ بَدا وكأنه إحراز مزيد من ثياب الحداد التي تغطّي أرض "غزّة"، غادر الكثير من الأجانب القطاع، لكن أعضاء حركة التضامن قرّروا البقاء.

في الوقت الذي تعلن فيه إسرائيل أنّ حربها ليست موجّهة ضدّ المدنيّين بل ضدّ حماس، يكون قد وصل عدد المساجد المدمّرة منذ بداية الحرب إلى خمسة عشر مسجدًا، علاوةً على العدد الكبير من المنازل والمشافي والمدارس والجامعات التي دمّرها القصف، ووصل عددُ الضّحايا إلى خمسمئة ثمانية وأربعون في ذلك الوقت، وبرز دور الأطباء والطواقم الطبيّة وتحدثنا مع طبيب يُدعى (ثائر) الذين كان يتجول لمداوة الجرحى بسيارة الإسعاف، وبعد مرور بعض الوقت أرْدته طلقة دبّابة أصابت سيارة الإسعاف التي كان فيها.

تتجلّى نكبة 1948 مرّةً أخرى أمام أعيننا عندما رأيت قوافل الفلسطينيّين وهي تمشي دون هدىً في إطار البحث عن ملجأ آمن، وقد التقطنا بعض الصور لهذه القوافل بالأبيض والأسود وقارنا بينها وبين النكبة فوجدنا الشّبَه

الكبير بينها وبين ما رأيناه من صور النّكبة القديمة، في ظلّ هذه المأساة ما زال الصحفيّون المرتزقة الذين كنا منهم نُردد ما تقوله إسرائيل عن الحرب على الإرهاب، في وقتٍ تتزايد فيه صور المجازر وقصْف المراكز المدنيّة ليصل عددُ الشهداء إلى ستمئة وخمسون شهيدًا

ونلاحظ استخدام طائرات "الأباتشي" المتطوّرة جدًا التي تلقي القنابل العنقودية والفوسفور الأبيض المحرّميْن دوليًا، بينما يقف الفلسطينيون بمقاليعهم الحجريّة لمواجهتها، كما نُلاحظ ثبات عدد القتلى الإسرائيليّين على الرقم أربعة فقط منذ بدْء العمليات، وبحضور كلّ هذا الدمار نجد أنه حتى الأطفال يرفضون مغادرة "غزّة"، عندما وجدت طفلًا يبكي فأخبرته بالذهاب لمكان يحتمي به فرد عليّ بِعنف ظهر على وجهه "أنا لن أغادر وطني!".

ذلك رغم كلّ الحرمان وصعوبة تأمين المستلزمات الحياتيّة التي تأتي من تحت الأرض عبْر الأنفاق التي استهدافها من قبل الطائرات طيلة هذا اليوم، في سعْيٍ من السلطات الإسرائيلية لحرمان أهل "غزّة" حتّى من النذر اليسير الذي يصلهم، لتتجمّع لديهم الأسباب التي تدفعهم للانتفاض ضدّ "حماس"، وهو أحد أهداف هذه الحرب.

كانت الطواقم الطبية تعاني بشدة حيث تبيّن لنا في "غزّة" أنّ فرقة الإعدام الإسرائيلية ضربت بأبقراط عرض الحائط، مسدّدةً بنادقها عليه ومطلقةً النار، ففي حين لا يتمّ استهداف سيارات الإسعاف في الحروب، أعلنت إسرائيل أنها ستستهدف سيارات الإسعاف؛ لأنّ الإرهابيّين

يستخدمونها في تنقّلاتهم، وهذا ما لم ولن يحدث إطلاقًا بِحكم وجونا الدائم على متْنها.

قامت الطائرات الإسرائيلية بإلقاء مناشيرها الورقيّة على "غزّة" أنّ إسرائيل قد حسمت أمرها وقرّرت تدمير القطاع تدميرًا شاملًا، فالعمل جارٍ على قدم وساق وكانت ترجمة تلك المناشير دعوة سكّان "غزّة" لإخلائها قبل قصفها، وبينما نحن نمرّ بين الأنقاض والحفر ما كان يُعرض في أفلام الخيال العلمي، حيث بدَا وكأنّ نيازكَ قد حوّلت "غزّة" إلى خرائب، وتم استخدام قنابل الديم "Dime" المكوّنة من خليط الكربون والراتنج مدمجةً مع الفولاذ والتنغستين، وهي مخصَّصة لقتال المدن حيث تحْدث موجة قاتلة في منطقة سقوطها.

وكنا ننظر نحو الأفق في انتظار أيّ نورٍ يعطينا الأمل بعد أنْ انتهكت كلّ بوصة من أرضنا وتحوّلت حتى الجنازات إلى أهدافٍ للطائرات الإسرائيلية التي تتبعها العقبان لتنهش الجثث التي تخلّفها، إننا نبحث عن أيّ ممرٍّ آمن خارج هذا الجحيم، هذا الممرّ الذي يحاول مركب "روح الإنسانية" التابع لحركة "غزّة حرّة" والمحمّل بأطنانٍ من المساعدات الطبية وأربعين طبيبًا وممرّضًا وصحفيّين وأعضاء في البرلمان الأوروبي ونشطاء حقوق إنسان ممثّلين لسبعة عشر بلدًا مختلفًا إيجاده.

وفي هذا الوقت، أوردت الأنباء أنّ الولايات المتحدة على وشك أنْ تشحن حمولة 300 طن من الأسلحة إلى إسرائيل من اليونان، كما أعلن الجيش الإسرائيلي، على أحد

مواقع الانترنت الأميركية، أنه يستهدف أعضاء حركة التضامن الدولية وخاصّةً نحن؛ لأننا نساعد "حماس"، وقد وضعوا صورةً تضمنا أنا و(مُنقذ) و(صُمود) لتساعد على الاستدلال علينا وأرقام هواتف لنا بهدف إبلاغ إسرائيل عن مكانه.

فلم نتمهل ولم نجلس نضع أيدينا علي وجهنا ونترك هؤلاء الجرحى لهذا الجحيم، فالأطفال الذين ذُبحوا بالقصف الإسرائيلي ووصل عددُهم إلى 255 طفلاً، وحملات الشّجب العالميّة للجرائم التي ترتكبها إسرائيل، وإضافة للاحتجاجات، تعالتْ الأصوات على مستوى العالم لمقاطعة إسرائيل لإنهاء احتلالها للأراضي الفلسطينية باتّباع نفس الأسلوب الذي أدّى إلى إنهاء العنصرية في جنوب أفريقيا، وفي وقتٍ تدمّر فيه الطائرات المساجد دون أيّ ردّ فعلٍ دولي، ونتخيل ماذا لو أصاب أحد صواريخ القسّام كنيسًا، كانت ستعمّ الاحتجاجات ضدّ الإسلام العالم قاطبة.

في "دوائر جحيم جباليا" وخاصّةً مشافيها، تبدو وكأنّ لعنةً قد حلّت عليها، وتقوم فكرة الدوائر على أنّ هنالك مستوياتٍ مختلفةً للعقاب في الجحيم تتجلّى في تسع دوائر، والدوائر مركّزة في الوسط وهي تمثّل ازديادًا تدريجيًا لمقدار الشرّ، وتتجمّع في مركز الأرض، وتخصّص كلّ دائرة لمخطئين يعاقبون بطريقةٍ تناسب جرائمهم.

وأعتقد أنّ مركز هذه الدوائر يتركّز في جباليا هذه الأيام، فالعقاب الجماعي نزل على الشّعب الفلسطيني في "غزّة" بسبب اختياره حركة حماس في انتخاباتٍ ديمقراطية

راقبت سير عملياتها لجانٌ دولية، وهي عبارة يدأب عالمُ اللسانيات والمعارض الأميركي "نعوم تشومسكي" على ترديدها في كلّ مقالاته التي تتحدّث عن فلسطين أو المنطقة.

كان "انقلاب الجغرافيا رأسًا على عقب" هو ما ميّز "غزّة" في يوم 16 كانون الثاني حيث لم يعد بمقدور السكان ،إذا غادروا منازلهم، الاهتداء إلى طريق العودة إليها نتيجة تغيّر الجغرافيا، وكان الدّمار الذي ينتشر في كلّ مكان مانعًا لوصول سيارات الإسعاف لمقصدها كي تنقذ جريحًا أو تخلي شهيدًا، كما أنّ صورة أقمارٍ صناعية لغزّة هذه الأيام ستكون مغايرةً تمامًا لصورةٍ أُخذت قبل شهرٍ واحد، لم يقتصر عمل الجنود الإسرائيليّين على قتْل المدنيّين وتدمير "غزّة"، بل كانوا يظهرون وهم يسرقون المنازل والمتاجر بمشهدٍ يدلّ على وضاعتهم، كما برز عمل القنّاصة الإسرائيليين الذين كانوا ينجزون ما تبدأ به الدبابات والطائرات عبر اصطياد الناس الفارّين من منازلهم بعد أن يستهدفها القصف.

في غمرة القتل الذي ينتشر في "غزّة"، وبينما نقف في الدمار الذي خلّفته آلةُ القتل الإسرائيلية ولج الحب داخل الصدور، فحتمًا مهما كانت العوائق فهو السبيل الوحيد لجعل العالم أفضل، كان هناك أناسٍ يمارسون الحبّ في ظلّ القصف، حتى أنّ أحدهم كان وزوجته في لحظة عناق ملؤها الرقّة حين ضبطتهما رصاصة وأقحمت نفسها بينهما، فأصابت اللوح الخشبي في مقدّمة السرير على بعد بوصاتٍ من رأسيهما، فالفلسطينيون الذين يؤرّقون إسرائيل بمعدّل الإنجاب لديهم، والذين يهدّدونها بالقنبلة الديموغرافية، لا يجدون لحظةً يستكينون فيها لزوجاتهم في هذا الدمار،

والأزواج الفلسطينيون الجدد، على عكس أقرانهم الإسرائيليين الذين يمضون العطلة على شاطئ البحر، لا يمكنهم حتى ممارسة الحبّ في أسرّتهم الخاصّة.

وصل عدد الجرحى إلى 5,320 جريحًا في حين أنّ القدرة الاستيعابية لِما تبقّى من مشافٍ لا تتجاوز 1,500 سريرًا، وقصفت دبابة إسرائيلية صباح هذا اليوم 17 كانون الثاني، مدرسةً أخرى تابعة للأونروا في بيت لاهيا شمال قطاع "غزّة"، فجُرح جراء القصف 14 تلميذًا ،في حين قُتل اثنان، تواصل إسرائيل فرْض أوامرها بإخلاء المنازل وإلاّ ستُقصف فوق ساكنيها، كما خرجت دعواتٌ لقصف "غزّة" بالسّلاح النووي على غرار ما تمّ أواخر الحرب العالمية الثانية، حين أُجبرت اليابان على الاستسلام بعد قصف اثنتين من مدنها بالسّلاح النووي، وبينما كان يتم الحديث عن وقفٍ لإطلاق النار في الخارج، قُتل 60 فلسطينيًا في الليلة الماضية، كُنا قلقين بسبب الحديث عن إطلاق النار دون الحديث عن فتْح المعابر، ممّا يعني استمرار حجزنا في أكبر سجنٍ مفتوح في العالم، وهو ما يقلق المنظّمات الإنسانية أيضًا.

في "غزّة" وحدهم الأموات هم من شهد نهاية الحرب، بينما يستمرّ الأحياء في معركتهم الأبديّة للبقاء على قيْد الحياة، وسمعنا حديثًا في جهاز الراديو عن أنباء وصول الأمين العام للأمم المتحدة "بان كي مون" إلى غزّة غداً 20 كانون الثاني، حيث تنتظره الكثير من التقارير ليطّلع عليها، حيث ان هناك الكثير من القصص لإبلاغه بها بعد أنْ قصفت إسرائيل مدرستين تابعتين للأمم المتحدة واغتالت أربعة من

موظّفيها، كما قصفت ودمّرت مركز الأونروا في مدينة "غزّة" محوّلةً أطنانًا من الأدوية والموادّ الغذائية التي كانت مخصّصةً للسكّان المدنيّين إلى رمادٍ خلال تلك العملية، تعود الحياة شبه طبيعية للقطاع.

ويجاهد الغزّاويون للتظاهر بأنّ الحالة طبيعية على الرغم من أنّ ملامح وجوههم تَشي بغير ذلك حيث أنّ لكلٍّ نصيبه من المصيبة التي حلّت بأرضهم، تابعت جبال الأنقاض لفْظ الجثث التي في جوْفها إلى السطح، وكما هو متوقّع خرقت إسرائيل الهدنة ليلة البارحة كعادتها، 18 كانون الثاني، فرغم عدم إطلاق أيّ صاروخٍ فلسطيني، قُتل طفل بفعل القصف الإسرائيلي وأمطرت حوامة منطقة سكنيّة شرق مدينة "غزة" بقنابل الفوسفور الأبيض وفعلت الشيء ذاته في جباليا.

أمّا اليوم 19 كانون الثاني، فقد أطلقت سفينة حربية قذائفها على سهلٍ مفتوح دون أن تصيب أحدًا بأذى، أصيبتُ أنا و(مُنقذ) بالذهول عقب الجولة التي قُمنا بها بعد الهدنة، وسأل (مُنقذ) بذهول قد طغي على تعابير وجهه:

- كيف أخطأ الجيش وأصاب الأبنية بدل أنْ يصيب معقل الإرهابيّين؟!

تأثرت بكلماته تلك، لكن كنت أخبئ الإجابة معي فقلت له وأنا شارد الذهن:

- ما زال الاتحاد الأوروبي يتبع سياسة العقاب الجماعي بامتناعه عن تمويل مشاريع إعادة البناء طالما بقيت "غزّة" محكومةً من قبل "حماس".

الهدنة التي أُعْلِنَ عنها لم تكن سوى فرصة لإحصاء عدد الموتى واكتشاف حجم الدمار والمجازر التي لم تعلنْ من قبل بسبب انعدام القدرة على التجوّل، لذلك استحقّت تلك الهدنة التسمية بأنها "هدنات الموت"، فالموت لم يتوقّف في "غزة" رغم إعلان الهدنة، وتجولنا في خرائب غزّة، فانكشف عكس ما يدّعيه قادة الجيش الإسرائيلي بأنّ لديهم براهين قاطعة على أنّ المواقع التي قصفوها كانت كلّها قواعد دعم لاستخدام إرهابيّي "حماس".

الفوسفور الأبيض بطل عمليّة الرّصاص المصبوب، عنصرٌ جديد يُضاف إلى جانب اليورانيوم المنضب، إلى سجلّ الأسلحة المحرّمة دوليًا التي تستخدمها إسرائيل ضدّ الفلسطينيّين، فعلاوة على نار المراوغة التي تتغذّى بالماء الذي يسكب لإطفائها، لا يزال يثير العجب بنتائجه التي بدأت تظهر أو تلك التي سيتكفّل الزمن بإظهارها في شكل سرطانات أو مواليد مشوّهين، كما قال أحد أطبّاء إحدى المشافي في "غزة"، لاحظت ذلك من صوت المؤذّن الذي صعد إلى إحدى المآذن المتبقّية في "غزّة" لتقطع نوبة سعال حادّة آذانه الذي كان مهيبًا مرّة قبل أن يتعرّف إلى الفوسفور الأبيض.

وسمعنا تقريرًا في الراديو بصوت رخيم جاء من صحفي كان ينتقل أمامنا لعرض تلك المجازر على شاشات العالم أجمع، لكن الصوت أصبح مُشوشًا فلم نسمع شيئًا، فتركنا (مُنقذ) بمفرده في السيارة وهبطنا أنا و(صُمود) لمكان الحدث وأنا أحمل الكاميرا على عاتقي، فوجدنا الصحفي يقف

مع شاب في عِقده العشرون، فعلمنا بأنه من قاطني تلك القرية بلباسه المهترئة فقال بصوته الرخيم:

- صعدتُ إلى سطح منزلي لأشاهد التناقض اللوني بين أرضٍ خضراءَ تمتدّ بعيدًا خلْف الحدود الفلسطينية الإسرائيلية حيث "الكيبوتسات"، وبين الأراضي الجرداء التي سرقت السلطات الإسرائيلية مياهها الجوفيّة داخل الحدود الفلسطينية.

فبكى الشاب وقال وهو يتشنج من كثرة البكاء:

- كان منزلي هو آخر منزل في القرية التي دمّرتها الجرّافات الإسرائيلية خلال تلك العملية.

استطرد الرجل:

- لم يدمّروا المنزل قبل ذلك لأنهم قرّروا استخدامه كمرصدٍ، فهو أكثر منازل القرية ارتفاعًا فدخلوا إليه واحتلّوه مدة أسبوعين وجعلوه مرصدًا لهم، وخلال هذيْن الأسبوعين، سُجنتُ مع ثلاث رجال من القرية ورجلٌ مسنّ ورجل مسنّ مشلولٍ أحدَ عشر يومًا نكّل الجنود بنا شرّ تنكيل، فمنعونا حتّى من الخروج لقضاء الحاجة ،وكانوا يمنعونا الماء عنا ويرمون لنا ما تبقّى من طعامهم كي نأكل.

أخفى الشاب دموعه بعدما كان يبكي بحرقة وهو يسرد قصّته تلك.

فكان ما رأه أكثر بكثير ممّا يمكن أن يتاح لشابّ في مثل سنّه أن تراه إذا ما كان حظّه سيئًا ووُلدَ في هذا القطاع المعذّب من الأرض.

وفي التاسع والعشرين من حزيران، وبعد خمسة أشهر من انتهاء المعارك، لم تكن الكارثة هي فقط ذلك الزلزال البشري الذي خلّف الخراب في "غزّة"، ولم تكن المعارك هي الشكل الوحيد للكوارث التي تصيب الشعب الفلسطيني، فكما أنّ لكلّ زلزال بؤرة كذلك لكارثة "غزّة" بؤرة لا تنتهي، إنها الحصار الذي قال عنه "جون جنغ" مدير عمليات الأونروا:

"إنّ الحصار هو لبّ العدم، إنه مركز التّعاسة البشريّة، إنه مركز اليأس والإحساس المتعاظم بتعثّر الأمل".

فقد تمّ تشديد الحظْر على دخول الموادّ الأساسيّة لعملية البناء، إضافةً إلى قطع غيار الآلات وقائمة طويلة من الموادّ والسّلع الغذائيّة والتجارية، إضافةً إلى البنود التي لا يمرّ يوم دون أن تتجدّد بإدخال بعض العناصر إليها دون أن يصار إلى التخفيف عن عناصر أخرى، وباختصار فإنّ المنْع طال كلّ شيء، لكن لسخرية القدر فقد تم السّماح بدخول معكرونة "الباستا" من أجل السيناتور الأميركي "جون كيري" الذي قدم في زيارة إلى قطاع "غزّة" في شباط وقد ذهل لسماعه أنباء منْع دخول "الباستا".

وفي وقتٍ وصلت نسبة الفلسطينيّين الذي يعتمدون على المساعدات الإنسانية في حياتهم إلى 85% من سكّان القطاع، لا تزال إسرائيل تعلن للعالم أنه لا توجد كارثة إنسانية في "غزّة" هذه الأثناء.

وقمنا بعرض فيه تداعيات الحرب على الرّأي العام العالمي وردود فعل المنظّمات الدولية واللّجان الدولية التي

شكّلت للتحقيق في الجرائم التي ارتكبت والاستخدام السافر لأسلحة محرّمة دوليًا، وتحدّثنا عن لجنة التحقيق التي شكّلها الجانب الإسرائيلي والتي برّأت الجيش من أيّ جرم، وبالطبع رفضت منظّمات حقوق الإنسان الدولية ما جاء في نتائجها. كما تحدّث عن لجنة "غولدستون" لتقصّي الحقائق التي شكّلها مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، كذلك نجد عرضًا لتقارير منظّمات حقوق الإنسان الدولية والدّعوة لتجريم قادة الحرب والسياسيّين الإسرائيليّين ومقاضاتهم أمام المحاكم الدولية الخاصّة بحقوق الإنسان وجرائم الحرب.

وعرضنا أيضًا استثمار السّاسة الإسرائيليّين الحرب على "غزّة" لأغراضٍ انتخابية وخروج دعواتٍ لاستخدام قنابل نووية ضدّ قطاع غزة وتوظيف ذلك انتخابيًا، وبينّا استمرار عمليات القتل والقصف رغم إعلان الجانب الإسرائيلي عن انتهاء المعارك، ولاحظنا عدم تغيّر موقف أوروبا والعالم "المتحضّر" من إسرائيل رغم كلّ الجرائم التي ارتكبتها.

كذلك، ربطنا بين دعوة الرئيس الأميركي "جون كينيدي"، في كلمته في برلين الغربية عام 1963، العالم للمجيء إلى ألمانيا للاطّلاع على نعيم الرأسمالية، وبين ما دعت إليه مدوّنة إيطالية العالم الذي ما زال يشكّك في حقيقة جرائم إسرائيل للمجيء إلى فلسطين والاطّلاع على الوحشيّة الإسرائيلية.

على تراب "فلسطين" التي أعشقها، وفي "غزّة" التي عِشتُ بين أهلها وعانيت الحرب مثلما عانوا، سقط (مُنقذ)

فقد قتلته أيادٍ سلفيّة، أو إسرائيلية بعد تركنا له بِمفرده في سيارة الإسعاف.

شعرت بأن سهمًا مُدببًا قد طُعن في قلبي جراء ما حدث فالقتيل صديق فلسطين الذي وقف في وجه إسرائيل ورفض مغادرة "غزّة" أثناء الجحيم، أيّ حقدٍ ذلك لينصَبَّ على جسد (مُنقذ) ؟ وأيّ ظلامٍ ذلك ليخطف روحه النقية؟ أيّ عماءٍ ذلك الذي يدفع لقتل مَن ترك أهله ووطنه ورغد العيش على شواطئ بلاده ليحمي صدور أطفال غزّة من الرصاص؟ ذلك الذي وهب جزءًا مهمًّا من حياته ومن عمله الصحفي ليفضح ذبح الفلسطينيّين اليومي.

وها قد ملأت الغبطة مجرمي إسرائيل ليصبح ربحهم مضاعفًا لموته، وخوف المتضامنين من أنهم ليسوا آمنين، وستكون جهودهم لترحيل المتضامنين أكثر سهولةً وسيكونون واثقين أنّ حملات التضامن ستتوقّف كما توقّفت أساطيل الحرية بعد أنْ هاجموها، ولن يجد أهل "غزّة" الذين أضاءوا الشّموع ليلة مقتل (مُنقذ) مَن سيتضامن مع مأساتهم، ولن يجدوا من يدفع القنابل عن سيّارات إسعافهم، أو مَن ينقل مشاهد الذّبح كما رآها بأمّ عينه، مات (مُنقذ) وترك أطفالًا في شوارع "غزّة" مازالوا يرمون بمقاليعهم الحجارة باتّجاه السماء، علّها تصيب وحشًا آليًا يلهو بحياتهم.

*****

تخبطتُ كثيرًا في رحلتي تلك، كنت أسير فيها مُغمض العينين دون وعي، ارتطمت في سدٍ منيع كان حائلًا بيني وبين ثغراته التي أعجزت عقلي عن التفكير، تفاجأتُ كثيرًا بِكم الصدمات التي أثارت براكين عقلي فأدمته بالمعرفة المخبأة خلف دفتي تلك المدينة العريقة.

كنت أسير ببطء شديد، كانت وتيرة الأحداث سلسة، لم يخلو الصواب منها حتى في صِدقها المُوجع، حقيقة المكان صادقة، ونابعة من مشاعر جياشة قد فاضت من كثرة ما يحدث حولها.

تساءلتُ كثيرًا هل الواقع أصبح ملوث؟! هل يجب على المرء الحذر والخوف منه؟

نحن مازلنا قابعين في بحر الجهل الذي يَعصِم وجوهنا وقلوبنا إلى ما تألفه هي لما ما نألفه نحن، فنسير مُلجمين ومُنساقين خلفها دون وعي؛ أما من يعترض ويثور على كل تلك الفوضى الواقعية يُصبح مَارستانِي محض، دون تلوث في الفكر.

الشعوب أصبحت تسير كالأنعام بل هم أضل، فيخافون نُباح الكلاب الذي يُصدر من بعيد ويهرعون منهم، ويحتمون بالذئاب التي تنهش أجسادهم حية دون رحمة.

الخطأ أصبح على الجميع لا يوجد من هو مظلوم في تلك الحياة، فهو من ألف ما يحدث من البداية ولم يتنفس ببنت شفة فأصبح لا حول له ولا قوة.

نحن أصبحنا نرى الجهلاء جهابذة، ونعلق شارات الاعتزاز والافتخار على مؤخرة رؤوسهم، وننسى أنهم ليسوا سوى بشر مثلنا.

عندما نُعلي الجهل فوق الرؤوس، فينبغي للعلم أن يرحل دون عتاب.

ابتلعت غصة في حلقي وتشجعت بالحديث مع هذا الهيام البشري:

- وما الذي يجب عليّ فعله؟

- أنت في عالم الأحلام، لا تعلم كيف تسير، فقناعتك بأنك تعلم يهدئ من روعك قليلًا، لكن هذا ما تُخادِعك به نفسك؛ حتى لا تشك بأمر ما يحدث وتعتبرها مصادفة لا مجال للشك فيها.

ثم شعرتُ بأنه توقف فجأة عن الطواف، وشعرتُ بأنفاسه الحارقة خلف أذني:

- أنت تسير في مسارات ملتوية، ومتفرقة، ومشتته لعقلك؛ فكن على سجيتك واتبَع قلبك فهو دليلك لسلوك الطريق المستقيم، فهو يعلم ما لا تشعر به.